محمد مهدي البصير

بعث الشعر الجاهلي

مطبعة التفيض الاهلية - بغداد

١٩٣٩

محمد مهدي البصير

بعث الشعر الجاهلي

مطبعة التفيض الاهلية ـ بغداد

١٩٣٩



أهم المصادر العربية التي استشيرت

في اعداد هذه المحاضرات

الاغاني طبعة مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٣ هـ .
حماسة البحتري طبعة المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٩٢٩ م .
ديوان الحماسة لأبي تمام طبعة المطبعة الجمالية بمصر سنة ١٩١٦ م .
ديوان زهير بن أبي سلمى طبعة مطبعة توفيق الأدبية .
شرح القصائد العشر لأبي زكريا التبريزي طبعة المطبعة السلفية بمصر سنة ١٣٤٣ هـ .
شرح المعلقات السبع للزوزني طبعة مطبعة السعادة بمصر سنة ١٣٤٤ هـ .
الشعر والشعراء لابن قتيبة طبعة مطبعة التقدم بمصر سنة ١٣٢٢ هـ .
طبقات الشعراء لابن سلام طبعة مطبعة السعادة بمصر .
العقد الفريد طبعة المطبعة الازهرية بمصر سنة ١٣٣١ هـ .
الفهرست لابن النديم طبعة المطبعة الرحمانية بمصر سنة ١٣٤٨ هـ .
الكامل في التاريخ لابن الأثير طبعة مطبعة بولاق بمصر .
نزهة الالباء في طبقات الأدباء طبعة مصر سنة ١٢٩٤ هـ .

أهم المصادر الفرنسية

René Doumic : Historire de la littérature française
طبعة .Mellotteé الطبعة الرابعة والاربعون
Gustave Lanson : Histoire illustrée de la littérature française
طبعة Hachette. ١٩٢٣
Raoul Martier : Histoire générale des litteròratures anciennes. طبعة Quillat. ١٩٢٣



المقدمة

ايها القارىء ، هــذه سلسلة محاضرات ألقيت فى دار الاذاعة اللاسلكية لم أرسم لها خطة ، ولم أحدد لالقائهـا مواعيد ، وانما كنت أعد كل واحـدة منها على حـدة عندما يطلب الى القاؤها ، بيد انها تسلسلت على سبيل الاتفاق ، وارتبط بعضها ببعض واتحدت موضوعاتها واغراضها حتى كونت مجموعا منسجما. ولكى اقول لك كل شىء ؛ أكاشفك بانى هذبت بعضها قبل الجمع والنشر فى مكان واحد تهذيبا كافيـا ، وكانت رغبـة فريق من اصدقائى ان أنشر ما يتم عنـدى من حين لآخــــر ، وحاجــة بعض طلابــى الى كتاب يلائم مزاعمى فى الشعر الجاهلى ؛ أكبر الاسباب التى دعت الى جمع هذه المحاضرات وتنقيحها ونشرها .

فالى أصدقائى وطلابى أهدى هذا الكتاب .

مهدى البصير

«امرؤ القيس» (١)

- تمهيد - امرؤ القيس - تاريخ اسرته - علاقته بلغته - انتشار لغة قريش بنجد قبل الاسلام - قصيدة قفا نبك ، الشك بجاهليتها ، دحضه ، تحليلها - الشعر القصصي الغرامي والوصف التحليلي الرقيق فيها ، لغتها وأسلوبها - الفرق بين هوميروس وامرئ القيس - رأى النقاد المعاصرين فى الالياذة وفى اغانى جست Geste من الوجهتين الادبية والتاريخية - دراسة قفا نبك لزاتها -

———:o:———

سيداتى سادتى

يسرنى ان اخبركم ان مصلحة الاذاعة اللاسلكية قد قررت القاء حديث فى الأدب العربى مساء كل ثلاثاء (٢) ،

---

(١) ألقيت هذه المحاضرة بتاريخ ٢-٨-٣٨ فى دار الاذاعة اللاسلكية ونقحت بعد ذلك تنقيحا كبيرا .

(٢) لم تتمكن مصلحة الاذاعة مع مزيد الأسف من تنفيذ هذا البرنامج .

وانها معتزمة ان تراعى التسلسل فى معالجة الموضوعات بحيث تصبح هذه الاحاديث كأنها دروس أدبية منظمة ، ومما يدعو الى الاغتباط ان المصلحة المذكورة ستعمل على القاء محاضرات مختلفة من شأنها ان تكون متممة لهذه الاحاديث ، والامل وطيد بأن تكون هذه الاحاديث وتلك المحاضرات كفيلة بتحقيق الغرض المنشود : الا وهو : نشر الادب العربى وتحبيبه للجمهور كافة ، وجعله سهل الادراك والتقدير على جميع الافهام والاذواق .

وبعد هذا التمهيد الوجيز نشرع بالقاء حديثنا فى هذا المساء على اسم الله .

ان امرأ القيس ايها السادة موضوع هذا الحديث ، ولست اطمع ان أدرسه الآن دراسة تفصيلية او شبه تفصيلية ، لان دراسته على هذا النحو تستوعب مجلدا ضخما ، ولكنى سأحاول اولا ان ألم بتاريخ قبيلته السياسى المامة قصيرة أخلص منها لمناقشة التهم الموجهة حديثا الى لغته عن طريق

نسبه ، وثانيـا ان أدرس معلقتـه درسا أتبين فيـه نصيب الشكوك التى أثيرت حولها من الصحة وحظها هى الاخرى من جمال الفن وروعته .

يحدثنا مؤرخوا العرب ان امرأ القيس الكندى الشاعر صـاحب (قفا نبك) سليل أسـرة يمانيـة مالكـة انتقلت من حضرموت الى نجد فى اواخر القرن الخامس للميلاد تقريبا ، وحكمتها نحوا من مائة سنة . وهم يقولون : ان عاصمتها (بطن عاقل) ، ومؤسس ملكها ، حجر بن عمرو الملقب بآكل المرار ، رابع اجداد أمرىء القيس . ويذكر هؤلاء المؤرخون لاستيلاء تلك الاسرة الكندية اليمانية على نجد أسبابا معقولة ، خلاصتها : انالحرب القبلية التى أكلت أحياء بكر بن وائل ، اضطرتها للتفكير بوضع حـد لهـذه المصائب . فطلبت الى حكومة صنعاء التى كان يحترمها العرب ؛ كما يقول ابن الاثير : « احترام المسلمين دولة الخلافة » ـ ان تختار لهم ملكا ينقذهم مما هم فيه من تنازع وتطاحن ، ويصلح من شأنهم ،

فاختارت لهم هذه : حجرا بن عمرو المذكور ، وانتقل هذا بأهله الى نجد فأسس بها امارته . ويظهر ان سلطان هـذه الاسرة قد امتد كثيرا على عهد كسرى قباذ حتى شمل امارة المناذرة برمتهـا . وشرح ذلك : ان كسرى قباذ طلب الى المنذر بن ماء السماء عامله على الحيرة ان يشايعه فى اعتناق مبادىء «مزدك» ، رسول الشيوعية بفارس فى القرن السادس للميلاد ، فرفض المنذر ، واجاب كسرى على هذا الرفض بعزل الامير اللخمى وتعيين الحارث بن عمـرو ثالث ملوك كندة بنجد وجد امرىء القيس خلفا له ، فدخل هذا عاصمة المناذرة ظافرا ، وتقاطرت عليه وفود القبائل تهنئـه بالملك وتقدم له الطاعة وتسأله ان يولى أبناءه أمورها ، فقبل وعهد لكل من ابنائه الاربعة بادارة شئون اقليم من اقاليم البادية ، وكانت ديار أسد نصيب ابنـه حجر والد امرىء القيس ، ولكن ما لبث الزمان ان دار دورته فمـات كسرى قبـاذ وخلفه أنوشروان وهو عدو لدود لمزدك واتباعه ، فنكل بهم تنكيلا شديدا وطرد الحارث بن عمرو واعاد المنذر بن ماء

السماء الى كرسى امارته فى الحيرة . وبذلك انتهت تقريبا دولة آل آكل المرار فطوردوا وخذلوا وقتلوا فى كل مكان. وعلى الاجمال لم تقم لهم قائمة بعد خروجهم من الحيرة . اما حجر والد امرىء القيس فقد ثار به اتباعه من بنى اسد وقتلوه لاسباب معروفة ، وبذل امرؤ القيس جهده فى سبيل ادراك ثار أبيه فلم يفلح .

هذا ملخص ما يرويه مؤرخوا العرب من تأريخ اسرة امرىء القيس السياسى بنجد ، ولا نزاع فى انه منسجم مطرد ، متفق وما ينقله مؤرخوا العرب من علاقة الدولة الساسانية بشبه الجزيرة كل الاتفاق . وظاهر انه لم يكن أكذوبة من أكاذيب القصاص ، فليس من المعقول ان يكون من عمل قصاص (عبدالرحمن ابن الاشعث) زعيم كندة على عهد بنى أمية ، لان استيلاء الحارث بن عمرو على الحيرة عن طريق مشايعة كسرى قباذ فى اعتناق اباحية مزدك يسىء الى سمعة كندة ويحط من كرامتها ، وليس من المحتمل ان يكون من صنع قصاص معاد لآل الاشعث ،

لانه لو كان كذلك لما تأخر دعاة هؤلاء عن دحض اكاذيب الخصوم وتفنيد مزاعمهم .

اذن فالتأريخ يقرر بوضوح ان امرأ القيس سليل أسرة كندية يمانية سكنت نجدا وحكمتها نحوا من مائة سنة وهو لا يعتمد مطلقا فى تقرير هذه الحقيقة على شعر امرىء القيس - كما يظن زميلنا الدكتور طه حسين - ، وانما يعتمد على المصادر التى روى عنها مؤرخوا العرب كل ما رووا من شئون شبه الجزيرة واحوالها السياسية والاجتماعية قبل الاسلام وبعده بقرن وبعض قرن .

انا لا اقول ان هذه المصادر معصومة من الزلل ولكنى أقول : ان شعر امرىء القيس لا ينفى شيئا ولا يثبت شيئا فى لغته او نشأته او نسبه او تأريخ أسرته عند القدماء . وان مؤرخى العرب لم يستدلوا بشعره يوما ما على شىء من كل ذلك ، وقد لا اخطىء اذا قلت ان الاستاذ طه حسين اول من زعم ان القدماء او انصارهم (يثبتون لغة امرىء القيس بشعره) وقد يكون آخر من يفعل ذلك . ولا ارانى بعد

هــذا بحاجـة الى ان أقرر ان لغة نجـد جرت مع الـدم فى عــروق امــرىء القيس ، وانـه لا مســوغ للشـــك بشعره عن طـريق اللغـة فمائة سنة تكفـى لجعله نجديـا صميمـا وللحيلولـة بين شعـره وبين نحـو اللغة الحميريــة وصرفهـا . وقد وجـد مؤلف الادب الجاهلى نفســه أمـام مشكلة اعقد من ذنب الضب عندما تساءل : أكانت لغـة قريش التى نظم امرؤ القيس بها شعره سائدة بنجد فى زمن امرىء القيس ؟ وأجاب على هذا بالنفى !! وعندى ان الشك بانتشار لغة قريش فى نجد قبل الاسلام ولا سيما فى زمن امرىء القيس مجرد وهم . لانه ليس لدينا ما يدعونا الى ان نتصوره او نفترضه ..

روى لنا نقلة اللغـة فى صدر الاســلام : ان لغة حمير مغايرة كل المغايرة للغـة مضر ، وجاءت البحوث العلميـة الاثرية فى هـذا العصر فأيدت هـذه الرواية ، ولكن ليس لدينا حتى الآن مطلقا ما يحملنا على الظن بأن لغـة نجد فى القرنين الخامس والسادس للميلاد غير لغة الحجاز . افنفترض

ذلك افتراضا لنخلق به مشكلة خيالية لا تعود علينا بشيء سوى الاسراف فى التخمين والحدس ؟ ؟ ! أضف الى ذلك ان مؤلف الأدب الجاهلى يعتقد ان لغة قريش اخذت تسود فى أواسط القرن السادس للميلاد شبه جزيرة العرب. وأمرؤ القيس - اذا صحت اقوال مؤرخى العرب - من ابناء ذلك العهد ، فليس بين وفاته وولادة النبى محمد (ص ع) سوى ربع قرن تقريبا . اذن فليست هناك مسألة شديدة التعقيد بالنسبة لشعر امرىء القيس مصدرها الشك فى انتشار لغة قريش بنجد على عهد هذا الشاعر ...

اما قفا نبك وهى موضوع القسم الثانى من هـذا الحديث ، فلست أشك فى انها جاهلية بحتة ولا فى انها من شعر امرىء القيس ذاته .

وقبل ان أقيم البرهان على هـذا اود ان أشير الى رأى زميلنا الدكتور طه حسين بهذه القصيدة ، لانه على جانب كبير من الظرف والفكاهة ، ذلك ان الاستاذ يرى ان (قفا نبك) منتحلة فى مجموعها !! ولكنه يعتقد انها من نظم

جماعة من الرواة او (الشعراء) ! ! فعنده ان وصف (يوم دارة جلجل) من نظم الفرزدق او من نظم راوية متأثر بشعره ، لان هذا الوصف ينتهى ببيتين شديدى الفحش هما أشبه بشعر الفرزدق !! وان القصة الغرامية المبدوأة بهذا البيت :

وبيضة خدر لا يرام خباؤها
تمتعت من لهو بها غير معجل

من نظم عمر بن أبى ربيعة او من نظم راوية متأثر بشعره ! ! • اما وصف الفرس فى القصيدة فالاستاذ مقتنع بان فيه شيئا من (ريح امرىء القيس ، ولكن من ريحه ليس غير) ! ! وكان بودنا ان يقول لنا الاستاذ : من هو الراوية المتأثر بشعر الفرزدق ، الذى ساهم فى نظم قفا نبك ؟؟ • ومن هو الراوية المتأثر بشعر عمر بن أبى ربيعة الذى تطوع بنظم القسم القصصى الغرامى منها ؟ ؟ • ومن هو الراوية الثالث الذى تفرد بنظم اجزائها الاخرى ؟ ! وان يخبرنا ايضا ولو على سبيل الحدس : كيف ومتى وأين ولماذا تعاون اولئك الرواة على نظم هذه القصيدة ؟ ؟ ! •على كل حال

للاستاذ الزميل رأيه فى الموضوع ، وللنقد الادبى النزيه ان يقره او يبطله . وقد زعمت فيما مر اننى لا أرتاب بجاهلية قفا نبك ولا فى نسبتها الى امرىء القيس ؛ فلأتحدث لك الآن عن الاسباب التى حدت بى الى هذا الزعم :

رويت هـــذه القصيدة على انها لامرىء القيس فى القرن الثانى للهجرة ، وكبار الرواة وثقاتهم كالمفضل الضبى وأبى عمرو بن العلاء والاصمعى وغيرهم أحياء ، ولم يطعن احد منهم بجاهليتها او فى نسبتها الى امرىء القيس ، ولم يكن هؤلاء الناس من السذاجة وفساد الذمة بحيث يسكتون عن تخرص كهذا فى رواية الادب ، فنحن لا نشك فى انهم ابطلوا نسبة لامية العرب الى الشنفرى لارتيابهم بصدورها عنه وبانهم أكدوا للجمهور انها من نظم خلف الاحمر وانها ليست من الجاهلية فى شىء . ولانشك ايضا فى انهم فعلوا مثل ذلك فى مرثية تأبط شرا التى مطلعها :

ان فى الشعب الذى دون سلع

لقتيـــلا دمـه لا يطـل

وكانت لهم فى نقدها آراء طريفة ، فقد قالوا : « ان ذكر سلع فى القصيدة يدل على انهـا مولدة ، لان سلعـا بالمدينة وقـد قتل تأبط شرا فى بلاد هذيل » . وقالوا فى هذا البيت :

خبر ما نابنـــا مصمئل   جل حتى دق فيه الاجل

« ان الاعرابى لا يتغلغل الى مثل هذا » . ثم ما لنـا وللاستدلال على نزاهة القوم ونباهتهم برفض لامية العرب ونبذ مرثية تأبط شرا ، ففى نقدهم جزءا من معلقة امرىء القيس نفسها ما يغنينا عن ذلك ، فهم يبرؤنها من هذين البيتين :

تـرى بعـر الآرام فى عرصاتهــــــا
وقيعانهـــــــا كأنه حب فلفل
كأنـــــى غـــداة البين يوم تحملوا
لـدى سمـرات (١) الحى ناقف (٢) حنظل

---

(١) سمرات : جمع سمرة وهى شجرة كثيرة الاشواك .
(٢) الناقف : الكاسر .

ومن هذا البيت :

وقربـة اقوام جعلت عصامهـــــا (١)

على كاهـل منى ذلول (٢) مرحـل (٣)

ومن هذه الابيات :

وواد كجوف العير قفـر قطعتـه

به الذئب يعوى كالخليع المعيـل

فقلت له لما عوى : ان شأننـا

قليل الغنى ان كنت لمـا تمول

كلانا اذا ما نال شيئا أفاتـه

ومن يحترث حرثى وحرثك يهزل

أفترى ان قوما ينزعون هذه النزعة فى ضبط اصول آدابهم وفى تنزيهها من الاختلاق والكذب يتواطئون على السكوت عن اكذوبـة كبـرى لها ما لها من الشـأن فى أدبهم ولغتهم كرواية ، قفـا نبك ، على انها جاهلية وعلى

---

(١) عصام القربة : الحبل الذى تشد به .

(٢ و٣) معتاد على حمل اثقال الزمان .

انها لامرىء القيس ؟ ! • أنقبل اقوال هؤلاء النقاد وآراءهم اذا اتفقت وبعض اغراضنا ، وننبذها ظهريا اذا خالفت ميلا من ميولنا او رغبة من رغباتنا ؟ •

لقد حملت أكاذيب كثيرة على الجاهليين ونسبت أحاديث خرافة لا تحصى الى الاسلاميين ، وأضيف كميات وافرة من الاباطيل • الى تأريخ كل شعب وتأريخ كل جيل • ولكن هذا الافتعال الذى عليه تضارب المصالح والاهواء ويقتضيه تطاحن الافراد والجماعات والذى تتقنه البيئات المتحضرة الراقية العارفة بأدق ضروب الدعايات وأنفذ اساليب الكذب اكثر بكثير من البيئات البدوية الساذجة •

اقول ان هذا الافتعال يدعونا الى الأناة والتثبت فيما ننقض وما نبرم من قضايا التأريخ ، لا الى الجحود المطلق ولا الى الانكار بحق وبغير حق ، ومهما يكن من شىء فقد رأيت ان جاهلية (قفا نبك) ونسبتها الى امرىء القيس : أمران يؤيدهما الدليل الملموس ويقررهما المنطق الذى

لا غبار عليه ... اذن لنفرغ لدرس هذه القصيدة :

لا اريد ان اكرر لك ما قيل مرارا كثيرة وما هو حقيقة ثابتة ايضا ، من انها تشتمل على عدة موضوعات مختلفة ،ولكن اود ان ألفت نظرك الى تجربتين جميلتين تمتا فى هذا الحقل ، هاتان التجربتان : هما الشعر القصصى الغرامى ، والوصف التحليلى الدقيق . فامرؤ القيس على ما نعلم اول من فطن الى جمال الحوادث الغرامية وأدرك لطف وقعها فى النفوس : فرواها بظرف ولباقة ، وقصها بجرأة وصراحة ، . على انه لو نزه شعره القصصى هذا من بعض الفلتات الذميمة لحمدنا له ذلك ، ولكنه شاعر بدوى ، وثنى ، يقول شعره ويذيعه فى اوساط تسودها الوثنية والبداوة فى القرن السادس للميلاد ، ويظهر انه قد استطاب كثيرا هـذا الشعر القصصى فعالجه مرتين فى قصيدة واحدة : وصف فى الاولى ما حدث له فى (يوم دارة جلجل) ، وقص فى الثانية زيارته احدى خليلاته . وغنى عن البيان انه أجاد فى كلتا المرتين اجادة تامة ، وقد فعل مثل هذا فى قصيدته التى مطلعها :

الا عم صباحا ايها الطلل البالـــــى
وهل يعمن من كان فى العصر الخالى

وقد حذا عمر بن أبى ربيعة حذوه فى هذا النوع من الشعر فبرع فيه براعة فائقة ، ولكنه لا يعدو على كل حال ان يكون تلميذه ومتبع طريقته وان يكن قد بذه واعتبر بحق امام هذا النوع من النسيب .

اما الوصف التحليلى الدقيق ، فامرؤ القيس كذلك مبتكره ومبتدعه فى القريض العربى ، والا فاين نجد هذا التصوير الدقيق للمرأة :

هصرت (١) بفودى (٢) رأسها فتمايلت
على هضيم الكشح (٣) ريا المخلخل
مهفهفة بيضاء غير مفاضة (٤)
ترائبها مصقولة كالسجنجل

---

(١) هصر : جذب وثنى .
(٢) الفودان : جانبا الرأس .
(٣) الكشح : الخصر .
(٤) مفاضة : مسترخية البطن .

تصد وتبدى عن أسيل وتتقـى
بناظرة من وحش وجـرة مطفل
وجيـد كجيد الريـم ليس بفاحش
اذا هـى نصتـه (١) ولا بمعطل
وفرع يزين المتن أسود فاحـم
أثيث كقنو النخلـة المتعثكل

. . . .

وكشح لطيف كالجديل (٢) مخصر (٣)
وسـاق كأنبوب السقـى المذلل (٤)

وهذا الوصف الرائع للفرس :

وقد اغتدى والطير فى وكناتهـا
بمنجـرد (٥) قيد الاوابد (٦) هيـكل (٧)

---

(١) نصته : رفعته .
(٢) الجديل : زمام يتخذ من الجلد .
(٣) المخصر : الدقيق الوسط .
(٤) يكاد الشراح يجمعون على ان أنبوب السقى المذلل هو البردى الذى ينبت بين النخل المسقى .
(٥) المنجرد : قصير الشعر .
(٦) الاوابد : الوحوش .
(٧) الهيكل : الضخم .

مكر مفـــر مقبل مدبر معـــــا
كجلموذ صخـر حطـه السيل من عـلِ
لـــــه أيطلا (١) ظبـى وسـاقا نعامـــة
وارخاء (٢) سرحان وتقريب (٣) تتفل (٤)

. . . .

كـأن دمــــــاء الهاديات بنحـــــره
عصـــارة حنـــــاء بشيب مرجـــل

وفى وصف البرق وما يتبعه من مطر وسيل شذرات جميلة لا تقل حسنا عما ذكرت .

أما أسلوب هذه المعلقة فانه لا يخلو من موطن ضعف : ففى لغتها مثلا شىء من الفضول والحشو يدل على عدم اكتراث الشاعر بتنقيح عبارته وتهذيبها تهذيبا كافيا . مثال ذلك قوله :

---

(١) الايطل : الكشح .
(٢) الارخاء : هو الجرى الخفيف .
(٣) التقريب : رفع اليدين معا ووضعهما كذلك .
(٤) التتفل : ولد الثعلب .

ويضحى فتيت المسك فوق فراشها

نؤوم الضحى لم تنتطق عن تفضل

فلا ريب ان المعنى ينتهى بقوله « نؤوم الضحى » ، وليست بقية البيت سوى فضلة . بل انى لا أرى فائدة ما فى عجز هذا البيت :

ويوم عقرت للعذارى مطيتى

فيا عجبا من كورها المتحمل

لقد جىء بهذا العجز نزولا عند ضرورة العروض والقافية . والا فاية غرابة فى حمل كور مطية معقورة على غيرها ؟ .

هــــذه سقطات قليلة مصدرها عدم اكتراث امرىء القيس بتنقيح عبارته كما قدمنا فهو يقول الشعر لانه بحاجة نفسية الى ان يقوله ، ولا يتكلف عناء قرضه ليتناقله الرواة عنه وليشتهر به بين الناس ، ومهما يكن من أمر هذه الهنات فالقصيدة تمتاز رغم بداوتها بقلة الغريب وسهولة التعبير ، فالفاظها متينة جزلة ، الا انها فى الغالب ليست

مما ينبو عنه السمع ، وينفر منه الطبع ، وهى لا تضطرنا فى كثير من الاحيان لاستشارة المعاجم اللغوية :

أفاطم مهلا بعض هذا التدلل
وان كنت قد أزمعت هجرى فأجملى
أغرك منى ان حبك قاتلى
وأنك مهما تأمرى القلب يفعل
وما ذرفت عيناك الا لتضربى
بسهميك فى اعشار قلب مقتل

. . . .

وليل كموج البحر أرخى سدوله
على بانواع الهموم ليبتلى
فقلت له لما تمطى بصلبه
وأردف اعجازا وناء بكلكل
الا ايها الليل الطويل الا انجل
بصبح وما الا صباح منك بأمثل

انا لا ادعى ان « قفا نبك » كلها جلية واضحة على هذا

النحو على انه لو حصل ذلك لكان غير طبعى ، لان هـــذه القصيدة قيلت فى جوف الصحراء وقبل زهاء اربعـة عشر قرنا ، ولكننى أزعم ان لغتها أقرب الى الجلاء والوضوح منها الى الغموض والتعقيد . وهذا ناشىء - على ما اظن - عن اخلاص الشاعـــر ، لانـه لا يتكلف البحث عن الخواطـــر والافكار ، وانما يعبر عمـا يجيش بصـدره ويدور بخلده . ومتى اخلص الشاعـر فيمـا يقول كان بيانه سهلا وشعره سلسا .

وشيء آخر لا يقل عن الجلاء والوضوح قيمة فى اسلوب (قفا نبك) الا وهو : الضبط الذى لا يفطن لاهميته سوى كبار الشعراء .

يريد امرؤ القيس ان يقف ويستوقف اصحابه على آثار حبيته فيشخصها لهم تشخيصا دقيقا ، ويحدد ما يحيط بها تحديدا كاملا :

قفا نبك من ذكـرى حبيب ومنزل
بسقط اللوى بين الـدخول فحومـل

فتوضح فالمقراة لم يعف رسمها
لما نسجتها من جنوب وشمأل

الواقع ان فى هذين البيتين خارطة كاملة لمنزل حبيبة امرىء القيس .

ويتحدث الينا هذا الشاعر عن برق تبعه مطر فيقول لنا أين كان عندما هب ذلك البرق ، وفى اى مكان هطل المطر الذى تلاه :

أصاح ترى برقا أريك وميضه
كلمع (١) اليدين فى الحبى (٢) المكلل
قعدت له وصحبتى بين بارق
وبين العذيب بعدما متأمل
علاقطنا (٣) بالشيم أيمن صوبه
وايسره على الستار (٤) فيذبل (٥)

---

(١) لمع اليدين : حركتهما .
(٢) الحبى : ما ارتفع من السحاب .
(٣) اسم جبل .
(٤ ـ ٥) جبلان .

ولكن ربما كانت جودة التشبيه وكثرته أبرز صفة فى اسلوب امرىء القيس ، فهو يكثر من التشبيه ويجيد فيه الى حد قد لا يسمو اليه احد من شعراء الجاهلية ، ولا من شعراء صدر الاسلام . وقد أحصيت فى (قفا نبك) خمسة وعشرين تشبيها جميلا ، مرت بك طائفة صالحة منها . بعضها فى وصف المرأة . وبعضها فى وصف الفرس ، والبعض الآخر فى وصف الليل . وانك لواجد هذا الطابع - اعنى الاكثار من التشبيه ، والاجادة فيه - فى اكثر ما يروى عن امرىء القيس من الشعر .

يشبه الدكتور طه حسين امرأ القيس (بهوميروس) لاعتقاده ان كلا الشاعرين شخصية خرافية ، وينتهى من هذه المقارنة الى نبذ كل ما يروى عن امرىء القيس من الشعر على انه له ! ! ولكن هذا غير صحيح . لان الفرق بين هوميروس وامرىء القيس عظيم جدا . فنحن نجهل نسب هوميروس وأسرته جهلا تاما ، ولا ندرى

اين ولد (١) ولا نعلم ولو على وجه التقريب تأريخ وفاته . ولكننا نعرف نسب امرىء القيس وأسرته معرفة لا بأس بها ، ونعرف كذلك منبته ومنشأه وتأريخ وفاته بصورة تقريبية . على اننا اذا سلمنا جدلا ان امرأ القيس شخصية خيالية كهوميروس ، فليس فى هذا ما يحملنا على نبذ ما يضاف اليه من الشعر ولا سيما (قفا نبك) ....

لا يرتاب اليوم احد فى ان هوميروس شخصية خرافية ، ولكن « الالياذة » لم تزل المثل الاعلى للشعر . والدكتور (راوول مورتى) - Raoul Mortier - يقول لنا فى هذا الشأن : « ليس من المهم ان تكون الالياذة من نظم هوميروس او من نظم مغن يونانى آخر لم يصل اسمه الينا ، فهذه المسألة ليست الا ذات اهمية نسبية » . ويرى النقاد الفرنسيون هذا الرأى نفسه فى اغانى (جست) - Geste - التى تكون الحلقة الاولى من سلسلة الشعر الفرنسى ، فهم يعتقدون ان هذه الاغانى كانت موضع

(١) تتنازع شرف ولادة هوميروس سبع مدن يونانية وفى مقدمتهن « أثنا »

عبث الرواة والمغنين نحوا من خمسمائة سنة تنتهى باوائل القرن السادس عشر للميلاد (١) ، وبأنه لا سبيل لرد بيت واحد منها الى قائله الحقيقى ، فقد رويت منظومة ، ثم رويت منثورة ، وغنيت على انها اناشيد ، وحكيت على انها اقاصيص ! ! . ولكنهم مجمعون مع ذلك على انها أساس الشعر الفرنسى ، ومتفقون على وجوب تدريسها لذاتها ، ولست اعرف معجما فى تأريخ الادب الفرنسى يخلو من ذكرها . اذن لنفترض ان امرأ القيس شخصية خيالية ، ولكن (قفا نبك) قصيدة حسنة وحسنة جدا ، ولست اول من يزعم ذلك ، فقد كانت هذه القصيدة موضع اعجاب القدماء كافة ، ونحن اذا جردنا هؤلاء من كل حسنة فاننا لا نستطيع ان نجردهم من معرفة الشعر بلغتهم ، وعلى هذا ارى ان ندرس (قفا نبك) لذاتها لا لانها من نظم امرىء القيس ، فالقصيدة شخصية بحتة

---

(١) هذا هو رأى الاستاذ ــ بديا ــ (Bédier) وكان المعتقد قبله ان أصول هذه الاغانى كانت موجودة منذ سقوط الامبراطورية الرومانية الغربيــة .

لا تمثل سوى حياة قائلها ، ولا تدل الا على سعة خيالـه وجودة شاعريتـه . واضافتهـا الى (امرىء القيس) او الى (خلف الاحمر) او غيره من الرواة لا تزيد ولا تنقص من قيمتها الشعرية الفنية شيئا . هذا الى انه من الخطأ ان نبحث عن حقائق التأريخ فيما يعنيه وفيما لا يعنيـه ، وان نهمل البحث عن الشعر لانه شعر فقط ! ! ...

———:o:———

زهير بن أبي سلمى (١)

موقف دعاة التجديد منه - خلاصة أقوال الرواة عنه - قيمتها - مميزاته - الواقعية في شعره - تفكيره - دعوته الى السلم - فلسفة امثاله - المقارنة بينه وبين المعرى و المتنبي - أسلوبه - الخلاصة -

---:o:---

ايها السادة يظهر اننا لسنا بحاجة الى اقامة الادلة التأريخية فى صدر هذا الحديث على ان زهيرا بن أبى سلمى قد وجد حقيقة وقرض الشعر وترك آثارا حسنة · فمجددوا الأدب عندنا - على أساس الشك فيه - يميلون الى الاعتقاد بأن زهيرا بن أبى سلمى شخصية حقيقية ، ولكنهم يرجون ان كثرة الاخبار التى يتناقلها الرواة عنه (أقرب الى الاساطير منها الى حقائق التأريخ) · ونحن بدورنا لا نرتاب فى ان

---

(١) ١٨-٨-١٩٣٨ ·

أخبار زهير ليست كلها صحيحة ، الا أننا نظن أنها تكفى في مجموعها لحملنا على الاعتقاد بأن زهيرا بن أبى سلمى مزنى أقام فى غطفان ، وانه من أسرة معروفة بقرض الشعر فى الجاهلية والاسلام ، وانه احد الثلاثة المقدمين باجماع الرواة والنقاد على شعراء الجاهلية كافة وهم : امرؤ القيس ، والنابغة الذبيانى ، وهو . وانه كان متمتعا بكل رعاية هرم ابن سنان الذى كان يغدق عليه العطايا والمواهب اغداقا . على ان نسبة زهير الى مزينة واقامته فى غطفان وكونه من أسرة معروفة بقرض الشعر ، وحظوته عند هرم ، ورأى النقاد القدماء والرواة فيه ، كل ذلك لا يهمنا الا بدرجة اضافية ، والمهم حقيقة هو ان نعرف شاعرية زهير وفلسفته ومذهبه فى قرض الشعر وما أدخل عليه من اصلاح وتجديد ونحن لا نعرف هذا كله الا من شعره مباشرة .

سأقتصر فى حديثى ايها السادة على درس معلقة زهير لانها تشتمل دون غيرها على اكثر العناصر التى تستدعى اهتمامنا :

يمتاز زهير بايثار الواقعية فى شعره ، وبتفكيره فى شؤون الحياة والمجتمع تفكيرا حدى به الى انتهاج خطة خاصة لم ينتجها شاعر عربى آخر قبل الاسلام على ما نعرف . وبهاتين الظاهرتين الجليلتين تمتاز معلقته بنوع خاص .

الواقع ان شعراءنا فى العصر الجاهلى ولاسيما أصحاب المعلقات كلهم ميالون الى تقرير الحقيقة فى شعرهم ميلا شديدا . وان حدثت لبعضهم شطحات قليلة . الا ان زهيرا ارسخهم فى هذا المذهب قدما . واشدهم به تمسكا ، واكثرهم له تنفيذا . ولا أدل على ذلك من قوله :

وان احسن بيت أنت قائله

بيت يقال اذا انشدته صدقا

وانت اذا بحثت عن الواقعية فى مطولته وجدتها قوية واضحة فى نسيبها المعتدل الهادىء وفى مديحها الخالى من كل غلو واغراق : فليس فى نسيبها عبرات تتحدر ولا زفرات تتصعد ولا ، تنهدات تذيب الصخور ، ان هى الا وقفة على طلل يحيى فيها الشاعر دارا نعم بها مع زوجه فى

سالف الزمن تحية العاشق الوفى ، يتلوها وصف مسهب دقيق لسفر ظعائن تنقلن من واد الى آخر طلبا للماء وارتيادا لمنابت الكلأ ، فلما انتهين الى حيث يطيب المقام ألقين عصا الترحال واطمأنت بهن الدار . وغنى عن البيان ان هذا كله مما يجرى دائما فى حياة سكان البادية ، وتقتضيه طبيعة بلادهم وتضطرهم اليه اساليب معيشتهم . اذن فزهير لم يرو لنا فى نسيبه سوى حوادث واقعة ، ولم يعبر الا عن عواطف صادقة . وانه لمن الغريب ان يتفق هذا وما يزعمه الرواة من ورع زهير واعتداله وصدقه كل الاتفاق .

اما مديح هـذه المطولة ، فلست اعرف مديحا اقرب منه الى الحقيقة ولا ادل منه على الواقع .

لا احدثكم ايها السادة بشىء جديد اذا قلت لكم ان غرض زهير الاول من نظم هـذه القصيدة اطراء هرم بن سنان والحارث بن عوف المريين لاصلاحهما بين قبيلتى عبس وذبيان اللتين كانتا قد اشتبكتا فى حرب طاحنة تسمى (حرب داحس والغبراء) ولدفعهما ديات القتلى من

ما لهما الخاص ، فانظروا كيف يقرضهما ويثنى على عملهما الجليل :

فأقسمت بالبيت الذى طاف حوله
رجال بنوه من قريش وجرهم
يمينا لنعم السيدان وجدتما
على خير حال من سحيل (١) ومبرم (٢)
تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ودقوا بينهم عطر منشم (٣)
وقد قلتما ان ندرك السلم واسعا
بمال ومعروف من القول نسلم
فأصبحتما منها على خير موطن
بعيدين فيها من عقوق ومأثم
عظيمين فى عليا معد هديتما
ومن يستبح كنزا من المجد يعظم

(١) السحيل : هنا الامر غير المدبر .
(٢) والمبرم : ضده .
(٣) راجع البحث عن الاسلوب .

واصبح يحـدى فيهم من تلاد كم (١)
مغانـم شـتى من افال (٢) مزنـم (٣)
تعفى الكلـوم بالمئـين فأصبحت
ينجمهـا (٤) منْ ليس فيهـا بمجْرِمِ

اظن انه ليس هناك مدح ابعد من الكذب ، واقرب الى الصدق من هذا المدح ، فقد شاعت فيه الحقيقة وتمكن منه الهدوء وغلب عليه الاعتـدال حتى كاد يكون جافا .. تلك هى واقعية زهير ، امـا تفكيره الذى يرفعـه الى منزلة مفكـر فى هـذا العصر : فيتجلى فى دفاعـه الصادق عن السلـم من ناحيـة ، وفى ضربه الامثـال القيمـة فى الحياة والاجتماع من ناحية اخرى .

حقا ان تطوع زهير للتبشير بالسلم لا يخلو من غرابة ،

---

(١) التلاد : المال .
(٢) افال : جمع افيل وهو الفصيل .
(٣) المزنم : من الابل ذو علامة فى أذنه دالة على الكرم .
(٤) ينجمها : يؤديها فى اوقات معينة .

فشعراء عصره جميعا يحبون الحرب ويتغنون بمجدها ، ويتباهون بخوض غمارها ويفخرون بالانتصار على الاعداء وبتمزيق صفوفهم كل ممزق ، ولست أعيب عليهم هذا ، فتقاليدهم القومية وشئونهم الخاصة والعامة ، وروح عصرهم وبيئتهم كلها تقتضى ذلك ، على انا فى هذا القرن لسنا أرقى منهم شعورا ولا اكثر عطفا على الانسانية ، ولا أقل رغبة فى سفك الدماء . والذى أريد ان أقول : هو ان زهيرا ابن أبى سلمى ربما كان الشاعر الجاهلى الوحيد الذى أدرك مزايا السلم وعرف فوائده وقدره حق قدره ، فدعى اليه بكل ما أوتى من براعة ولباقة وجرأة وصراحة ، ونظر الي الحرب نظرة حكيم متدبر عارف بويلاتها ، مدرك لعواقبها التى تعود بالوبال على الغالب والمغلوب معا . فصب عليها جام غضبه وأوسعها مقتا وازدراءا واحتقارا . والا فمن هو الشاعر الجاهلى الذى تروى عنه كلمة كالقطعة التالية :

ألا أبلغ الاحلاف (١) عنى رسالة
وذبيان هل اقسمتم كل مقسم

. . . .

وما الحرب الا ما علمتم وذقتم
وما هو عنها بالحديث المرجم
متى تبعثوها تبعثوها ذميمة
وتضر (٢) اذا ضريتموها فتضرم
فتعرككم عرك الرحا بثفالها (٣)
وتلقح كشافا (٤) ثم تنتج فتتئم
فتنتج لكم غلمان أشأم كلهم
كأحمر عاد (٥) ثم ترضع فتفطم

---

(١) المعنيون هنا : هم بنو اسد وغطفان .
(٢) تضر : تعود .
(٣) الثفال : جلد يوضع تحت الرحا . يريد ان الحرب تفعل بهم ما تفعل الرحا فى دورانها .
(٤) كشافا : يقال لقحت الناقة كشافا اذا حملت فى كل سنه والمستحسن هو ان تحمل عاما وتجم عاما .
(٥) يريد بأحمر عاد : عاقر ناقة صالح وقد لاحظ الاصمعى ان زهيرا اخطأ فذكر عادا مكان ثمود .

فتغلل لكـم ما لا تغل لاهلهـــا

قرى بالعراق من قفيز ودرهم (١)

وظاهر ان شاعرا يبدى آراءا كهذه فى الحرب والسلم (٢) فى القرن السادس للميلاد وفى مجتمع بدوى صميم خليق بأن يضرب الامثال التى تنتهى بها معلقة زهير .

يحتوى بعض هذه الامثال افكارا سديدة واضحة مسلما بها من كل أحد تسليما تاما كقول زهير :

ومن يجعل المعروف مندون عرضه

يفره ومن لا يتقى الشتم يشتم

(١) بدهى : ان زهيرا يتهكم بالمتحاربين فى هذا البيت فيقول لهم انكم اذا اغرتم الحرب فستعود عليكم بمالا تعود به القرى العراقيــة على اهلها من الخيرات والبركات » ولكن الدكتور طه حسين يفهم من هذا ان زهيرا يشبه الحرب » بالقرى العراقية التى تغل على اهلهــا الحب والدرهم » الادب الجاهلى ص « ٣١٨ » .

(٢) من مقت زهير للحرب بلهجة اخف وصفه غدرة حصين بن ضمضم قاتل ورد بن حابس العبس ـ بعد الصلح ، وفى هـــذا دراسة دقيقة لحالة حصين النفسية :

لعمرى لنعم الحى جـر عليهـم ... بما لا يؤاتيهم حصين بن ضمضم

وكان طوى كشحا على مستكنة ... فـلا هو ابداها ولم يتجمجـم

وقال ســأقضى حاجتى ثم اتقى ... عدوى بألف من ورائى ملجـم

فشـد ولم يفزع بيـوتا كثيرة ... لدى حيث القت رحلها ام قشعم

ومن هاب اسباب المنايـــا ينلنه
ولو رام أسـباب السماء بسلّـــم
ومن يوف لا يذمم ومن يفض قلبه
الى مطمئـن البرّ لا يتجمجـــم

ويحتوى البعض الآخـر افكارا تحتمل المناقشة وتسترعى الجدل كقوله :

رأيت المنايا خبط عشواء من تصب
تمتـــه ومن تخطىء يعمـر فيهرم
وأعلم علم اليوم والأمس قبلـــه
ولكنني عن علـم ما فى غـد عـم
ومـن لا يصانع فى أمـور كثيرة
يضرس بأنيـاب ويوطأ بمنسم (١)
ومن لا يذد عن حوضـه بسلاحـه
يهدم ومن لا يظلم الناس يظلم (٢)

(١) المنسم : خف البعير .
(٢) يختلف رواة المعلقات فى ترتيب امثال زهير ، وقد رويت هذه الابيات الاربعة بترتيب مفترض اقتضته سهولة البحث .

ففى البيت الاول يصرح زهير بأنه قد درس الحياة فوجد انها غير خاضعة لنظام ، وان أعمار الناس تطول وتقصر على سبيل الاتفاق ، فمنهم من يهرم فتنحط قواه ويفنى تدريجا فيموت ، ومنهم من يلقى حتفه وهو فى عنفوان الشباب او فى طور المراهقة او غير هذا وذاك من اطوار الفتوة والقوة . وفى البيت الثانى يعلن الشاعر أنه يعرف ماضى الحياة وحاضرها لانه رآهما ، ولكنه يجهل مستقبلها ، اى انه لا يؤمن بالبعث !! . وفى البيت الثالث يكاشفنا زهير بأن المجاملة فى كثير من الاحيان أمر لا مناص منه ، ولكى يدلنا على فائدتها وأهميتها يذكر لنا نتائج اهمالها ، . ولهجة زهير فى الاعراب عن هذه الفكرة تشعر بأنه ينصحنا بأن ننافق فى ابداء آرائنا . ولكن الحقيقة هى ان زهيرا يصور لنا حياة مجتمعه فيقول لنا : انالمصانعة والمحاباة رائجتان كل الرواج ، وان الصراحة فى القول تفضى غالبا الى ما لا تحمد عقباه فى العلائق الاجتماعية . **أما ظاهر البيت الرابع فهو الايصاء** بالظلم والتعدى على الناس (ومن لا يظلم الناس

يظلم) ، والواقع هو ان الشاعر يعرض علينا صفحة اخرى من حياة مجتمعه فيقول لنا : ان الناس لا يحترمون الا من يعتقدون انه قوى ، وانهم ميالـون بطباعهم الى ظلـم من لا يخافون منه الظلم . ومعلوم ان ما يقوله زهير فى هذا الشأن ينطبق كل الانطباق ليس فقط على عصره ومجتمعه ، بل على أكثر العصور والمجتمعـات البشرية ـ ان لم نقل كلها ـ ولاسيما عصرنا عصر المدنية والنور ، ومجتمعنا البالغ ذروة الارتقاء والتحضر ... لا شك ان الابيات التى يعبر بها زهير عن رأيه فى الحياة والناس ؛ قليلة ، ولكنها نفيسة جدا ، ولسنا نغالى اذا قلنا انهـا جرثومة الفلسفة الشعرية التى نبتت فى حقل القريض العربى ونمت على توالى العصور حتى آتت أكلها فى أمثال المتنبىء وأقوال صاحب اللزوميات.

ليس لنا طبعا ان نقارن بين زهير وبين أبى العلاء او بينه وبين المتنبىء ،ولكننا نستطيع ان نقرر انه واضع اول حجر فى بنيان الفلسفة الشعرية الذى تعاون على رفع قواعده فريق من أفذاذ شعرائنا فى مقدمتهم رهين المحبسين .

اسلوب زهير

وكما يمتاز زهير بواقعيته ، وجودة تفكيره ، كذلك هو يمتاز بخصائص فنية جليلة من حيث الاسلوب .

صحيح انه لا يقل عن امرىء القيس عناية بضبط الحوادث وتعيين الاشياء والاشخاص فقد اخبرنا ، عندما وقف على ديار زوجته أم أوفى ، ، أين هى ، ومتى كان الماه بها ؟ :

أمن أم أوفى دمنة لم تكلم
بحومانة الدراج فالمتثلم
ديار لها بالرقمتين كأنها
مراجع وشم فى نواشر معصم
وقفت بها من بعد عشرين حجة
فلأيا (١) عرفت الدار بعد توهم

وذكر لنا اسماء أهم ضحايا الفتنة الناشبة بين قبيلتى عبس وذبيان عندما أثنى على هرم بن سنان والحارث بن

---

(١) اللأى : المشقة .

عوف لاصلاحهما بين القبيلتين ودفعهما ديات القتلى من مالهما الخاص :

لعمرك ما جرت عليهم رماحهم
دم ابن نهيك او قتيل المثلم
ولا شاركت بالحرب فى دم نوفل
ولا وهب فيها ولا ابن المخزم

وفعل مثل ذلك عندما بحث عن غدرة حصين بن ضمضم .

وصحيح ايضا ان زهيرا شديد الميل كامرىء القيس الى دماثة اللغة وسهولة التعبير ، فما أظن ان أقل الناس حظا من العلم باللغة يعجز عن فهم قول زهير :

سئمت تكاليف الحياة ومن يعش
ثمانين حولا لا أبالك يسأم

او قوله :

ومهما تكن عند امرىء من خليقة
وان خالها تخفى على الناس تعلم

ولا يمتاز هذان البيتان من شعر زهير بدماثة اللغة ، بل

ان هذه شائعة فى أكثر ما وصلنا من شعره .

صحيح كل ذلك ، الا ان زهيرا يمتاز بأنه شديد الاقتصاد باللفظ ، فمتى انتهى عنده المعنى ، انتهت معه الالفاظ اللهم الا ان يخلق معنى جديدا كما حدث له ذلك فى قوله :

تداركتما عبسا وذبيان بعدما
تفانوا ، ودقوا بينهم عطرَ منشم

فأنت ترى ان معنى البيت ينتهى بقوله « تفانوا » ، ولكن الشاعر خلق معنى جديدا باشارته الى « عطر منشم » المرأة العطارة المعروفة بالشؤم فى البادية فأتم بيته دون حشو ولا فضول .

ومن خصائص زهير الفنية الظاهرة : ميله الشديد للبساطة ، فأنت اذا تأملت شعره رأيت انه يمتاز بمتانة التعبير وانسجامه وقربه من الافهام . اما الاستعارات والتشابيه فلا تشغل فيه الا مكانا اضافيا ، وما تقدم من شعره كاف لان يقنعنا بوجاهة هذا الزعم ، على انى لا ادعى ان منظوم

زهير خال من المجاز والتشبيه وما يجرى مجراهما خلوه من الحشو ، ولكنى أزعم انه أقرب الى البساطة منه الى الزخرفة البيانية . وهنا يظهر أعظم فرق بين زهير وامرىء القيس : فما انتهى الينا من آثار الاول يدل على انه يؤثر البساطة ويرى أنها مبعث الجمال فى الشعر ، وما انتهى الينا من آثار الثانى يدل على انه يكلف بالاستعارات والتشابيه ويستمد منهما اكبر جزء من جمال شعره وروعته .

لنلاحظ اذن ان زهيرا يشاطر امرأ القيس أهم مزايا أسلوبه وهى : الضبط والمتانة والجلاء فى التعبير . ولكنه يمتاز بخلو كلامه من الحشو خلوا تاما ، وبأنه لا يعير الزخارف البيانية سوى أهمية نسبية .

الخلاصة: ان زهيرا بن أبى سلمى شخصية فذة فى عالم الادب الجاهلى وحسنة جدا فى عالم الادب العربى بوجه عام لانه جمع بين الشاعرية والتفكير الى حد بعيد ، ولان تفكيره سديد ، ايجابى ، موفق فى الغلب . وقد أدى جمعه بين التفكير والشعر الى خلق طريقته الخاصة التى

تتلخص فى تقرير الحقيقة من جهة ، وفى جمال التعبير وبساطته من جهة اخرى . ليس فى نسيب زهير ما يميزه عن سائر الشعراء ، ولكن فى مديحه وفى وصفه ، وفى أمثاله ، من حيوية الشعور ودقة التفكير والقدرة على الابتكار وجمال الاداء ، ما يجعله من خيرة شعرائنا .

ان اهمال زهير وأدبه ، بحجة انتحال الشعر بعد ظهور الاسلام وحمله على الجاهليين ، خسارة لا تعوض .

---:o:---

معلقتان (١)

عمرو بن كلثوم التغلبي والحارث بن حلزة اليشكرى - درس معلقة كل منهما - معلقة بن كلثوم - دلالة نسبها على غرام صادق - فخرها - اغراضه - لغتها واسلوبها - معلقة بن حلزة - سبب نظمها - تحليلها - أصلية بن حلزة - التسلسل المنطقى فى أفكاره - قدرته على التصوير - قيمة معلقته التاريخية - الخلاصة .

———:o:———

ايها السادة ، رأيتم أن منابع التأريخ العربية فى القرون الوسطى تنص على وجود امرىء القيس التأريخى ، فلاحظوا الآن اذا شئتم : انها تنص كذلك على حقيقة وجود عمرو ابن كلثوم شاعر تغلب وزعيمها ، والحارث بن حلزة اليشكرى

---

(١) ٢ - ٩ - ١٩٣٨ .

لسان بكر ومحاميها والذائد عن حقوقهـا : فـ (الكامل فى التأريخ) يذكر من أخبار عمرو بن كلثوم وشعره ما اتصل بتأريخ ملوك الحيرة ، وصاحب « الأغانى » يروى له أخبارا كثيرة وقطعا شعرية مختارة عديدة ويذكـر جزءا يسيرا من معلقته . ويعنى هذا المؤلف كذلك بالحارث بن حلزة اليشكرى، فيدون أخباره ، ويذكر مختارات طريفة من شعره ولاسيما من معلقته ، . ويعد ابن سلام المتوفى سنة (٢٣٢) هـ فى كتابه (طبقات الشعراء) عمـرو بن كلثوم والحارث بن حلزة من شعراء الطبقة السادسة . ويلم ابن قتيبة المتوفى سنة (٢٧٦) فى كتابه (الشعر والشعراء) بحياة كل من هذين الشاعرين وشعره المامة قصيرة (١) .

اذن فلا سـبيل الى انـكار وجودهمـا ولا الى الشك بشاعريتهما . والـذى يهمنا الآن درس معلقـة كل منهما

(١) يروى ابو تمام المتوفى سنة ٢٢٨ او سنة ٢٣١ هـ فى حماســته قطعتين مختارتين لعمرو بن كلثوم ، ويذكر المفضل الضبى المتوفى سنة ١٨٩ هـ فى مفضلياته للحارث بن حلزة قصيدة طريفة مطلعها « لمن الديار عفون بالحبس » ويروى له البحترى المتوفى ســنة ٢٨٤ فى حماســته قطعتين نفيستين .

وشرح ما لها من مميزات وخصائص . اذن لنشرع بالبحث المراد حالا :

استهل ابن كلثوم (١) قصيدته بوصف الخمر ، وليس من شك فى أنه كان يشربها ويتأثر بها ويستوحيها فى شعره ، ولكن ليس فى الابيات القليلة التى يصدر بها قصيدته ويصف فيها الخمر ما يستوقف نظر الباحث ـ اللهم الا تشبيه جميل سيأتى الكلام عنه ـ . اذن لنتجاوز هذا الوصف الموجز الى النسيب حيث يطنب الشاعر بعض الاطناب ويعرب عن انفعالات واحاسيس تكسب شعره شيئا غير قليل من النفاسة والقيمة .

لم يرو أحد من مؤرخى الأدب القديم أن نسيب ابن كلثوم فى معلقته يرمز الى صلة غرامية تربطه بامرأة معروفة ، ولكننا نميل الى الظن والى الظن القوى ، بأنه يعبر عن عاطفة غرامية صادقة لم تسمح لها الظروف بالظهور . ولنا على

(١) من دواعى شك الدكتور طه حسين بمعلقة ابن كلثوم : قول الاصمعى : « ان مطلع هذه القصيدة هو « قفى قبل التفرق يا ظعينا » البيت . ولكن هذا لا يعنى اكثر من ان الاصمعى روى هذه القصيدة عن اعرابى لا يرويها كلها .

وجاهة هذا الظن دليلان : أحدهما هـذا الوصف الغريب الذى يخص ابن كلثوم به حبيبته :

تريك اذا دخلت عـلى خـــــلاء
وقد أمنت عيون الكاشحينـــا(١)
ذراعى عيطل (٢) أدماء (٣) بكر (٤)
تربعت الأجـارع (٥) والمتونا (٦)

فلست أعرف شاعرا جاهليا وصف حبيبته هذا الوصف. وثانيهما ذلك الألم المبرح الذى نكاد نلمسه فى الأبيات التالية :

تذكـــرت الصبـــا فاهتجت لمـــا
رأيت حمولهـــا أصلا حدينـــــا

---

(١) الكاشح : العدو .
(٢) العيطل : الطويلة ، وقيل : طويلة العنق .
(٣) الادماء : البيضاء .
(٤) البكر : التى ولدت واحدا ، وقيل : التى لم تلد .
(٥) الاجارع : جمع اجرع وهو من الرمل مالم يبلغ ان يكون جبلا .
(٦) المتن هنا : ما غلظ من الارض .

فما وجدت كوجدى أم سقب (١)
أضلتـه فرجعت الحنينـــــــــا
ولا شمطـاء لم يترك شقاهـــــا
لهـــا من تسعة الاجنينـــــا (٢)

أنا لا أجهل أن التمهيد بالنسيب ـ للمديح وغيره من الاغراض الاصلية ـ عادة شائعة عند شعراء الجاهلية • ولا أنكر أنكارا قاطعا أن يكون ابن كلثوم قد نظم نسيبه تمهيدا للفخر الذى كان هدفه الأسمى فى قصيدته ، ولكنى أكاد اقتنع بأن هذا النسيب يشف عن حب صادق لم يعرف عنه الرواة شيئـا ، ومهمـا يكن من أمر نسيب ابن كلثوم فلا نزاع فى أن فخره نتيجة ثورة نفسية عنيفة ، أهاجت حميتـه وأيقظت حفيظته وحركت شاعريته •

فى الحقيقة أن ابن قتيبة (٣) وأبا الفرج الاصبهانى (٤) وابن الأثير (٥) يروون أن ابن كلثوم قتل عمرو بن هند

(١) السقب : ولد الناقة الذكر •
(٢) الجنين هنا : المقبور •
(٣) الشعر والشعراء •
(٤) الاغانى ج (٩) : ٢٠ ج (١) •
(٥) الكامل •

ونهب رواقه جزاء محاولته استخدام أمه ، ولكن ليس فى المعلقة ما يدل على أن الشاعر قد قتل الملك . على أنه لو فعل ذلك لما نسى أن يملأ قصيدته به فخرا .. نعم فى القصيدة اشارة الى أن ملك الحيرة كان يحاول اذلال قبيلة تغلب ويفكر فى أن يفرض على أشرافها خدمة أمه فرضا :

بأى مشيئة عمرو بن هند
تطيع بنا الوشاة وتزدرينا
بأى مشيئة عمرو بن هند
نكون لقيلكم (١) فيها قطينا (٢)
تهددنا وتوعدنا رويدا
متى كنا لأمك مقتوينا (٣)

ولكن ليس هناك ما يشهد أن ابن كلثوم انتقم لنفسه ولقبيلته بقتل الملك الجائر . وكلما تتضمنه القصيدة فى هذا الشأن تهديد بالخروج عن الطاعة ، واستعداد للدخول فى

---

(١) القيل : الامير .
(٢) القطين : الخدم .
(٣) القتو : خدمة الملوك ، والفعل : قتا .

نزاع مسلح مع الملك :

أبا هنـــد فلا تعجل علينـــا
وأنظرنـا نخبرك اليقينـــا
بأنا نـورد الرايات بيضـــا
ونصدرهن حمرا قد روينـــا

. . . .

وان قناتنـــا يا عمـرو أعيت
على الاعـداء قبلك أن تلينـــا
اذا عض الثقاف (١) بهـا اشمأزت
وولتهـم عشوزنة (٢) زبونـا (٣)
عشوزنـــة اذا انقلبـت أرنـت
تدق قفـا المثقف والجبينـــا

وسواء أصح ما روى مؤرخوا العرب من قتل ابن كلثوم عمرو بن هند أم لم يصح ؛ فمعلقته تحد صريح للملك يضع

---

(١) الثقاف : الحديدة التى يقوم بها الرمح .
(٢) العشوزنة : الصلبة الشديدة .
(٣) الزبون : الدفوع .

فيه الشاعر نفسه وقبيلته موضع ابن هند وأسرته من الرئاسة والقوة :

ورثنـــا المجد قد علمت معـــد
نطاعن دونـه حتى يبينـــــا
ونحـن اذا عمـــاد الحـى خـرت
عن الاحفاض (١) نمنع من يلينـا
ندافع عنهم الاعـــداء قدمـــا
ونحمـل عنهم ما حملونــــــا
نطاعن ما تراخى الناس عنـــا
ونضرب بالسيوف اذا غشينـــا

. . . .

بفتيـان يرون القتل مجـــــدا
وشيب فى الحروب مجربينـــــا
حديا (٢) الناس كلهم جميعـــا
مقارعة بنيهم عن بنينـــــا

---

(١) الاحفاض : جمع حفض بفتح الفاء : متاع البيت والجمل الذى يحمله .
(٢) حديا : تصغير حدوى وهو من تحدى اى دعى الى المقارعة .

فأما يوم خشيتنـــــــا عليهم
فنصبح غـــارة متلببينـــا (١)

وأمـا يوم لا نخشـى عليهـم
فنصبح فى مجالسنـــا ثبينـا (٢)

ويمعن ابن كلثوم فى الفخر حتى يسرف فى الادعاء ويمعن فى الغلو بنفسه وعشيرته :

ملأنا البر حتى ضاق عنـا
وظهر البحـر نملؤه سفينـــا

لنا الدنيا ومن أمسى عليهـا
ونبطش حين نبطش قادرينا

اذا بلغ الفطـــام لنـا صبـى
تخر له الجبابر ساجدينـــا

حقا لو ان الجبابرة تخر سجدا امام صبية قبيلة الشاعر

---

(١) تلبب : تحزم بالسلاح .
(٢) ثبون : الجماعات المتفرقة واحدتها ثبه .

متى بلغوا الفطام لما تحداه عمرو بن هند تحديا أخرجه من دائرة الاعتدال .

ومع ما يلاحظ من غلو ابن كلثوم وامعانه فى الفخر فقصيدته صورة من أنفة البدوى وابائه ونخوته ، وسجل حافل بوقائع يظهر أنها كانت ذات أثر كبير فى تأريخ الصحراء :

ونحن غداة أوقد فى خزازى (١)
رفدنا فوق رفد الرافدينا
ونحن الحابسون بذى أراطى
تسف الجلة الخور الدرينا (٢)
وكنا الايمنين اذ التقينا
وكان الايسرين بنوا أبينا
فصالوا صولة فيمن يليهم
وصلنا صولة فيمن يلينا

---

(١) خزازى : اسم جبل ، والشاعر يشير الى الدور الذى لعبته قبيلته فى تحرير النزارين من ربقة اليمنية بيوم مشهود حصل بقرب هذا الجبل .

(٢) تسف : تأكل ، الجلة : كبار الابل ، الخور : غزار الالبان منها ، الدرين : النبت القديم .

فآبوا بالنهاب وبالسبايا
وأبنا بالملوك مصفدينا (١)

ومطولة ابن كلثوم مصبوبة بقالب جميل ، فلغتها موسيقية جذابة ، وقوافيها محكمة ، وأسلوبها رصين خال من التعقيد ، منزه من الفضول والحشو غالبا :

قفى قبل التفرق يا ظعينا
نخبرك اليقين وتخبرينا
بيوم كريهة ضربا وطعنا
أقر به مواليك العيونا
قفى نسألك هل أحدثت صرما (٢)
لوشك (٣) البين أم خنت الامينا

واكثر أبيات المعلقة سهل اللفظ دمث التركيب على هذا النحو .

---

(١) ينوه الشاعر بانتصار قبيلته على آل آكل المرار بعد خروجهم من الحيرة واسرها منهم ثمانية واربعين شخصا يقال انهم قتلوا فى ديار بنى مرين بأمر المنذر بن ماء السماء .

(٢) الصرم : القطيعة .

(٣) الوشك : السرعة .

يظن زميلنا الاستاذ طه حسين ان سلاسة اللفظ فى معلقة ابن كلثوم دليل على افتعالها بعد الاسلام !! ولكنه يخطىء فى هذا بعض الشىء . فلغة القرآن الكريم لا تقل سهولة ودماثة عن لغة هذه المعلقة ولم يفصل بينهما قرن ..

أيها السادة ، لقد سمعتم مثلا عديدة من قصيدة ابن كلثوم تغلب عليها جميعا سلاسة اللفظ ودماثة التعبير ، فاسمحوا لى الآن أن أشرف هذا الحديث بتلاة مثل قليلة من عدة سور كريمة مختلفة ترون منها نصيب لغة القرآن من السهولة :

قال عز شأنه فى وصف المنافقين (سورة البقرة) :

- بسم الله الرحمن الرحيم -

...... ومن الناس من يقول آمنا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين . يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون الا أنفسهم وما يشعرون . فى قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون . واذا قيل لهم

لا تفسدوا فى الارض ، قالوا انما نحن مصلحون . ألا انهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون .

وقال جل ذكره فى وصف حياة الابرار وما يلقون من (نضرة وسرور) فى جنات عدن (سورة الدهر) :

- بسم الله الرحمن الرحيم -

ويطاف عليهم بآنية من فضة وأكواب كانت قواريرا. قوارير من فضة قدروها تقديرا . ويسقون فيها كأسا كان مزاجها زنجبيلا . عينا فيها تسمى سلسبيلا . ويطوف عليهم ولدان مخلدون اذا رأيتهم حسبتهم لؤلؤا منثورا . واذا رأيت ثم رأيت نعيما وملكا كبيرا . عاليهم ثياب سندس خضر واستبرق وحلوا أساور من فضة وسقاهم ربهم شرابا طهورا . انهذا كان لكم جزاء وكانسعيكم مشكورا..الخ
وجاء فى سورة (النبأ) فى وصف يوم الحشر وحياة أهل النار ما يلى :-

- بسم الله الرحمن الرحيم -

« ... ان يوم الفصل كان ميقاتا . يوم ينفخ فى الصور فتأتون أفواجا . وفتحت السماء فكانت أبوابا . وسيرت الجبال فكانت سرابا . ان جهنم كانت مرصادا . للطاغين مآبا . لا بثين فيها أحقابا . لا يذوقون فيها بردا ولا شرابا . الا حميما وغساقا . جزاء وفاقا . انهم كانوا لا يرجون حسابا . وكذبوا بآياتنا كذابا ، وكل شيء أحصيناه كتابا ، فذوقوا فلن نزيدكم الا عذابا . الخ ... » .

أظن اننى لا ابالغ اذا قلت ان لغة هـذه الآيات الكريمة على جانب كبير من السهولة ، وفى امكان كل فرد ان يتصفح المصحف الكريم ليتأكد أن لغته لا تختلف ابدا ولغة الآيات الشريفة التى أسلفت تلاوتها سلاسة ودماثة . واذا اقتنعنا بهذه الحقيقة الملموسة لم يبق فى دماثة لغة ابن كلثوم ما يحملنا على الظن بأن قصيدته مفتعلة بعد ظهور الاسلام .

أما شيوع الغريب فى لغة الاخطل شاعر تغلب على عهد بنى أمية ، فلا يتناقض مع دماثة لغة ابن كلثوم كما يظن الزميل الدكتور طه حسين ، وقد غلب التعقيد على شعر أبى تمام وساد الوضوح والسهولة فى شعر البحترى وهما شاعران طائيان متعاصران مرتبطان بأقوى صلات الأدب والصداقة ، ولهذا أمثلة كثيرة يضيق عن ايرادها هذا المقام . ومع أن البساطة شائعة فى اكثر اجزاء قصيدة ابن كلثوم فأن الزخرفة البيانية تظهر فيها احيانا ولكنها غير متكلفة وهذه الزخرفة هى عبارة عن التشابيه البليغة المنتشرة فى أبواب القصيدة المختلفة ؛ ولهذه التشابيه غالبا ؛ صفة خاصة لانها تمثل ما يسمونه : (باللون المحلى) ـ

تروق ابن كلثوم صفرة الحمر بعد المزج فيشبهها ـ بالحص ـ وهو نبت صحراوى أصفر :

مشعشعة كأن الحص فيها

اذا ما الماء خالطها سخينا

وتعجبه المرأة الضخمة فيشبه ذراعيها بذراعى ناقة رعت

الربيع فى أحسن المروج وأخصب منابت الكلأ . وتستلفت نظره حركة السلاح فى ميادين القتال فيشبه السيوف بالمخاريق :

كأن سيوفنا فينا وفيهم
مخاريق (١) بأيدى لاعبينا

وهناك تشابيه أخرى قليلة تدل على أن هذا الشاعر البدوى قد غشى المدن وعرف شيئا من ادوات الحضارة ، منها تشبيه الثدى بالحق العاجى :

وثديا مثل حق العاج رخصا
حصانا من أكف اللامسينا

ومنها تشبيه الدم بالارجوان ـ وهو صبغ أحمر ـ :

كأن ثيابنا منا ومنهم
خضبن بأرجوان أو طلينا

تلك اللغة الموسيقية ، وهذه التشابيه الرائعة تخلعان على معلقة ابن كلثوم مسحة شعرية تكاد تخلو منها مطولة ابن حلزة خلوا تاما ، ولكن هذه تفوق قصيدة ابن كلثوم من

---

(١) مخاريق : جمع مخراق وهو اداة لعبة صبيانية .

جهات أخرى : ذلك أنها أقوى تصويرا للحياة القبلية ، وأقرب الى الصواب والاعتدال فى معالجة الشئون والحوادث ..

. . . .

تتألف هذه القصيدة فى جوهرها من ثلاثة موضوعات : الغرام ، وصف الناقة ، الدفاع عن حقوق القبيلة .

يقلد الشاعر موضوعيه الاول والثانى شعراء عصره ، فلا يأتى بشىء جديد فى تفكيره او فى تعبيره ، ولكنه يجيد كل الاجادة فى معالجة غرضه الاصلى وهو الدفاع عن حقوق قبيلته .

يقال فى سبب نظم هذه القصيدة : ان قبيلة تغلب اتهمت بكرا بالحيلولة بين الماء وبين ركب من التغلبيين ، فمات هذا الركب عطشا ، ولذلك رفع التغلبيون والبكريون الخلاف الى عمرو بن هند ملك الحيرة ليقضى بينهم ، والسائد بين الرواة : أن بكرا لاحظت فى أثناء سير المناقشة أن عمرو بن هند ميال للحكم فى مصلحة تغلب ، فنهض

الحارث بن حلزة شاعر بكر ومحاميها والقى همزيته ، فكانت من قوة الحجة وبراعة الاسلوب بحيث حملت ملك الحيرة على القضاء فى مصلحة بكر .

بدأ الحارث دفاعه بوصف اهتمام التغلبيين بالامر واستعدادهم للسفر والمرافعة ، ثم رماهم بالافتراء ، وقال انهم دعاة فتنة وطلاب شر :

وزاد على هذا أنهم يبحثون عن حتفهم بظلفهم ، لان التجارب الماضية أثبتت ان بكرا أقوى منهم ، وأقوى بكثير . وتطرق الشاعر الى ذكر العهود والمواثيق المتبادلة بين قبيلته وبين تغلب فطالب الاخيرة بالوفاء بها . واراد ان يفهم خصومه بأنهم ضعفاء وأنه ليس من مصلحتهم ان يبحثوا عن فتنة ، فأشار بتهكم الى حروب كثيرة خسرتها تغلب خسرانا تاما . وختم خطابه بتعداد ما لقبيلته من اياد عند ملوك الحيرة فتكلم عن هذه الايادى بتفصيل واسهاب .

لم يفطن ابن حلزة كما لم يفطن اكثر شعراء عصره

لضرورة مراعاة وحدة الموضوع . ولكن مما لا ريبة فيه انه ذو اصلية قوية فياضة نلمسها فى ترتيبه الدقيق للمقاصد والافكار ، وفى قدرته العجيبة على التصوير ، وفى تهكمه الهادىء اللاذع بخصومه فقد بسط قضيته بحذق وبراعة ، ووضع كل شىء فى موضعه ولم يقل كلمة فى غير محلها ، وصور تحرش التغلبيين بقومه وبراءة الآخرين مما يرمون به تصويرا كان له أثره فى نفس الملك وفى نتيجة المرافعة :

واتانا عن الاراقم (١) انبــا
ء وخطب نعنى بـه ونســاء
ان اخواننــا الاراقـم يغلـو
ن علينا فى قيلهم احفــاء (٢)
يخلطون البرىء منا بذى الذنب
ولا ينفع الخلى الخـــلاء
زعموا ان كل من ضرب العيس
مــوال لنــا وانا الـــولاء

(١) الاراقم : رهط من تغلب .
(٢) الاحفاء هنا : التكليف بما لا يطاق .

اجمعوا امرهم بليـــل فلمـــا

اصبحوا اصبحت لهم ضوضاء

من مناد ومن مجيب ومن تص ، م ،

بهال خيــل خـــلال ذاك رغــــــاء

ايهـا الناطق المرقش (١) عنا

عند عمرو وهل لذاك بقـاء ؟

لا تخلنـا على غراتك (٢) انا

طالما قـد وشى بنا الاعـــداء

فبقينا على الشناءة (٣) تنمينـــا

جـددو وعــزة قعســـــــاء

. . . .

أيمـــا خطـــة ارتـــم فأدو

ها الينا تمشى بها الامـلاء (٤)

اما تهكمه فانه هادىء ولكنه قارص يلم فيـه بالوقائع

(١) المرقش : مزخرف الكلام بالباطل .

(٢) غراة : تأنيث غرى وهو الاغراء ولعلماء اللغة فى هذا نزاع .

(٣) الشناءة : البغض .

(٤) الامـلاء جمع ملأ .

التى خبرها خصمه ، فيعددها واحدة واحدة ويشير الى نتائجها المرة فى غير حماسة ولا تحامل :

اعلينا جناح كندة ان يغـ
نم غازيهموا ومنا الجـزاء
أم علينا جرى حنيفة او ما
جمعت من محارب غـبراء
أم جنايا بنى عتيق فمن يغـ
ـدر فانا من حربهم براء

ومما يجب التنبيه اليه فى دراسة معلقة ابن حلزة وبيان قيمتها الادبية والتأريخية انها تكاد تكون سفرا كاملا فى تأريخ قبيلتى بكر وتغلب ، ونحن اذا استثنينا الخمسة عشر بيتا الاولى التى يخص ابن حلزة بها حبيبته وناقته ويلصقها بقصيدته الصاقا ، كان الجزء الاعظم من القصيدة عبارة عن وصف بليغ ممتع لحروب البادية ومنازعاتها ، والطرق التى تتبعها فى حل الخصومات وفض المشاكل . ستقولون ولكن ما عسى ان تكون قيمة تلك القصيدة التأريخية ـ اذا فرضنا

انها منتحلة ـ ؟ ! والجواب على ذلك انها لا تفقد من قيمتها هـذه شيئا • ذلك لاننا اذا فرضنـا ، بل اذا جزمنا بانهـا منتحلة فاننا لا نستطيع ان نشك بتصويرها حيـاة البادية كما نعرفها تصويرا صادقا •

ان حياة القبائل الرحل السياسية كما وصفها ابن حلزة لا تزال موجودة الى الآن ، وفى وسع كل باحث ان يدرسها فى الممالك والاقاليم التى تسودها البداوة ، وليست هناك أدنى ريبة فى ان درسه سيؤدى به حتما الى تصديق ما جاء فى قصيدة بن حلزة • اذن ليكن ابن حلزة او خلف الأحمر او حماد الراوية او غير هـذا وذاك قائـل تلك القصيدة ، فقيمتها التأريخية ثابتة محفوظة على كل حال • وكل ما فى الأمر ان شرف نظمها ينتقل من شاعر ماهر الى راوية عالم كل العلم بشئون الامة التى يروى تاريخها قدير كل القدرة على تقليد شعرائها •

وقصارى القول ان ابن كلثوم التغلبى وابن حلزة اليشكرى شاعران حقيقيان عاشا فى القرن السادس للميلاد ولعبا ادوارا خطيرة على مسرح الادب والسياسة فىالبادية ، واضافا الى كنوز آدابها ـ بطولتيهما ـ ثروة خطيرة .

———:o:———

عنترة العبسي [1]

- حياته - قصته - ديوانه معلقته -

---:o:---

أمـا عنترة العبسى ايهـا السادة : فالسـائد عند اكثر المستشرقين ومن لف لفهم انه شخصية خرافية • وسترون بعد قليل ان هذا غير صحيح •

ان حديثنا عن عنترة سيتناول اربع نقط أساسية وهى : اثبات وجوده ، قصته ، ديوانه ، معلقته •

لا ريب عندى ايها السادة بان عنترة شخصية حقيقية ، وبانه من شـعراء العـرب وفرسانهم ، وبانه قد نال شهرة واسعة فى العهد الجاهلى •••

فى الواقع ان الاساطير التى نسجت حوله جعلت الوقوف

---

(١) ١٧-٩-١٩٣٨ •

على حقيقة أمره من الصعوبة بمكان ، ولكن لا يزال فى الامكان انتزاع شخصيته من عالم الاساطير وحشرها بين الشخصيات الممتازة فى عالم الادب العربى القديم ، ذلك لان مؤرخى الادب العربى الثقات ومؤلفى المختارات الشعرية الذين يعتد بدرايتهم وروايتهم فى القرنين الثانى والثالث للهجرة قد عنوا به وبحثوا عنه وذكروا نماذج لا بأس بها من شعره : فرواة المعلقات جميعا يروون معلقته ، وابن سلام يعده من شعراء الطبقة السادسة ويذكر مطلع معلقته ، وهى عنده تبدأ بقول عنترة : يا دار عبلة (البيت) وابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٢ هـ يخصه بفصل جيد فى كتابه (الشعر والشعراء) . وأبو تمام يذكر له أبياتا قليلة فى حماسته ، وكذلك البحترى يروى له فى حماسته ثلاث قطع جميلة . فاذا أضفت الى ذلك ان الاساطير لم تنسج حول عنترة الا فى أواخر القرن الرابع للهجرة ، تبين لك بوضوح انه وجد وعاش وأحب وجاهد وترك اخبارا واشعارا فيها شىء غير قليل من الجمال والمتعة . وان الاقاصيص المحمولة على

سيرته لا يمكن ان تطمس ما صح من اخباره واشعاره .

اما قصتـه وهى سبب كل ما أثير حولـه من الشكوك فليست سوى روايـة وضعهـا أديب مصرى اسمـه الشيخ يوسف . وقـد قيل فى سبب وضعها ان ريبـة حصلت فى سراى العزيز بالله لهج الناس بها كثيرا ، وساء الخليفة اهتمام الناس بهذه الحادثة فأوعز الى الشيخ يوسف وكان شديد الاتصال بالقصر ان يكتب شيئا يلهى به الناس عن التحدث بهذه الواقعة ، فأطاع الاديب أمر سيده ووضع قصة عنترة التى صرفت الناس تماما عن التفكير بمـا يجرى فى القصر . أطنب الكاتب فى قصته ليشغل بها الناس زمنا طويلا وجعل كل جزء منها ينتهى بحادث خطير لا تعرف نتيجته الا فى الجـزء التالى ، وهكـذا نجح فى حمل الجمهور على الاهتمام بالقصة والانصراف عما يجرى فى القصر ، نجاحا تاما .

وديـوان عنتـرة المتـداول المطبوع ببيروت منتزع من قصته ـ أعنى انه من نظم الشيخ يوسف ، او من نظم بعض معاصريه ـ والا فمن يستطيع ان يصدق بأن شاعرا جاهليـا

يتغزل على هذا المنوال :

أشارت اليهـا الشمس عند غروبهـا
تقول اذا أسود الدجى فاطلعى بعدى
وقال لهـا البـدر المنير الا اسـفرى
فانك مثلى فى الكمـال وفى السعـد
فولت حيـاءا ثـم أرخت لثامهـا
وقد نثرت من خدهـا رطب الورد

او على هذا النحو :

جفون العـذارى من خلال البراقع
أحـد من البيض الرقاق القواطع

أم من تبلغ منه السذاجة مبلغا يؤمن معه بأن عنترة هو القائل :

أقمنـا بالذوابل سـوق حـرب
وصيرنا النفوس لها متاعـا
حصانى كان دلال المنايـا
فخاض غمارهـا وشرى وباعـا

وسيفى كان فى الهيجا طبيبـــا
يداوى رأس من يشكو الصداعـــا

او القائل :

لو لا الذى ترهب الاملاك قدرته
جعلت متـن جـوادى قبـة الفلك

قولوا انتم فى اصل هـذه الابيات ما تشاءون ، اما إنا فأعتقد انه ليس من الممكن ان تنسب الى شـاعر من شعراء القرنين الاول او الثانى للهجرة ، فضلا عن ان تنسب الى شاعر جاهلى .

على ان فى الديوان قصائد حسنة منها بائية يزعمون ان عنترة أرسلها الى النعمان بن المنذر مطلعها :

لا يحمل الحقد من تعلو به الرتب
ولا ينال العلا من طبعه الغضب

ولامية مطلعها :

حكـم سيوفك فى رقاب العذل
واذا نزلت بـدار ذل فارحـــل

ولكن لا سبيل الى التصديق بشيء من هذا كله ، وكلما يصح لعنترة شعره المروى فى كتب الادب السابقة لقصته ، وهذا عبارة عن مختارات قليلة بينهـا معلقته التى نرى قصر الدرس عليها وتناولها بالتحليل لانها أهم ما يروى له .

يحدثنا عنترة فىصدر معلقته عن غرامه بابنة عمه وعشيقته عبلة الشهيرة ، ويتبع هذا الحديث وصف الناقة وعدوهـا الشديد وسيرها السريع ، وينتقل من هذا الى الفخر الذى يتفق وروحه كل الاتفاق فتجود قريحته وتواتيه شاعريته .

المعروف ان عنترة عاشق متيـم ، والشاعر العاشق عادة أقدر الناس على الاعراب عن لواعج الحب وتباريح الغرام ، ولكنى اؤكد لكم اننى قرأت نسيب معلقـة عنترة مـرارا ودرسته قدر ما استطيع فلم أجد فيه ما يشف عن لوعة الحب ومرارة الهوى ، وانا أتلو عليكم الآن مثلا من هذا النسيب لتقبلوا او ترفضوا رأيى فيه :

يا دار عبلـة بالجواء تكلمـى

وعمى صباحـا دار عبلة واسلمـى

فوقفت فيهـــا ناقتى وكأنهـــا
فدن (١) لاقضى حاجـة المتلوم (٢)
وتحل عبلـة بالجـواء واهلنـــــا
بالحـزن فالصمـــان فالمتثلــــم
حييت من طلل تقـــادم عهـــده
أقوى وأقفـــر بعـــدأم الهيثـــم
حلت بأرض الزائرين (٣) فأصبحت
عسرا على طلابهـــــا ابنـة مخرم

ومنهـــا :

ان كنت أزمعت الفـــراق فانمـــا
زمت ركابكــــم بليل مظلـــــم
ما راعنى الا حمولـــة أهلهـــا
وسط الديار تسف حب الخمخم (٤)

---

(١) الفدن : القصر .
(٢) المتلوم : المتلكىء .
(٣) الزائرين : الاعداء يشبههم الشاعر بالاسود الزائرة .
(٤) الخمخم : بقلة رديئة .

فيهـــا اثنتـــان واربعون حلوبـة
سودا كخافيــة الغـراب الاسحم
اذ تستبيك بذى غروب واضح (١)
عذب مقبلـه لذيـذ المطعـــــم

هذا نسيب بدوى جيد ، ولكنه لا يميز عنترة الشاعر العاشق من غيره من الشعراء الذين لم يعرف عنهم أنهم أحبوا وعشقوا كلبيد وابن حلزة ، والنابغة الذبيانى ، فكل هؤلاء قد ذكروا الديار وآثارها ، وحنوا الى سكانها القدماء بحق وبغير حق .

أمـا وصف عنترة الناقة فهو ككل هـــذا الشعر الذى وصفت به الناقة فى المطولات السبع وغيرهـــا ؛ ألفاظ غريبة ، وتعابير ضخمة ، وأخيلة وتشابيه بدوية بحتة . وهذا هو كلما يمتاز به ذلك الوصف . على أننا لا ننكر أن يكون فيه من الجمال ما يخلب ألباب متأدبى البادية ، بيد أننا نشك فى

---

(١) الواضح : الثغر والغروب حد الاسنان .

أن يكون بين سامعى هذا الحديث من يتذوق هذا الوصف ويعجب به .

ولكن اذا كان عنترة قد أخفق او كاد فى نسيبه ، واذا كان وصفه الناقة قد خلى مما يهمنا او يلذ لنا - وليس هذا ذنبه طبعا - فان فخره خليق بالاهتمام او قل بالاعجاب لانه مظهر شاعرية حقة ودليل بطولة صادقة . وأسرع فأقول انه لم يستحدث فى هذه الناحية من القريض مذهبا جديدا.فالتمدح بالشجاعة والاعتزاز بالمواقف الحاسمة فى ميادين القتال ، والتبجح بقرى الضيفان وببذل المال كلما دعت الحاجة اليه ، كل ذلك شائع معروف فى المطولات السبع وغيرها من الشعر الجاهلى . ولكن شيوع الموضوع لا يمنع من اجادة الشاعر فى طرقه ومعالجته . وفى فخر عنترة صور حية ناطقة من أخلاقه ، وشئونه ، واعماله ؛ كلها روعة وجمال .

يحدثنا هذا الشاعر الفارس عن احدى وقفاته الباسلة

فيصفها لنا بالأبيات التالية :

لما رأيت القوم أقبل جمعهم
يتذامرون (١) كررت غير مذمم
يدعون عنتر والرماح كأنها
اشطان (٢) بئر فى لبان (٣) الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة (٤) نحره
ولبانه حتى تسربل بالدم
ولقد شفى نفسى وابرأ سقمها
قيل الفوارس ويك عنتر أقدم

ويتمنى أن يظفر بخصمين يذكرانه دائما بالسوء ويريدان الانتقام منه لانه قتل أباهما ؛ فيفصح عن هذه الأمنية بما يأتى :

---

(١) يتذامرون : يحض بعضهم بعضا .
(٢) الاشطان : جمع شطن وهو الحبل .
(٣) اللبان : الصدر .
(٤) ثغرة : النحر ما بين الترقوتين او هى موضع النحر .

ولقد خشيت بأن أموت ولم تدر

للحرب دائرة على ابنى ضمضم

الشاتمى عرضى ولم أشتمهما

والناذرين اذا لقيتهما دمى

ان يفعلا فلقد تركت أباهما

جزر السباع وكل نسر قشعم

ويحاول ارضاء حبيبته التى لا يروقها لونه ولا شرف محتده من ناحية الأمومة ، فيرسم لها هذه الصورة الرائعة من أخلاقه :

هلا سألت الخيل يا ابنة مالك

ان كنت جاهلة بما لم تعلمى

يخبرك من شهد الوقيعة أننى

أغشى الوغى وأعف عند المغنم

كثير هم الشعراء الذين فخروا بالكرم والشجاعة ، ولكن ربما كان عنترة أول من جمع بينهما على هذا النحو . وسواء أكان عنترة مبتكرا أم مقتبسا لهذا المعنى ، فقد

أحسن فى التعبير عنه احسانا يجعله أحق الناس به .

وتبلغ شاعرية عنترة أشدها عندما يحدثنا كيف يقضى أوطاره وكيف يؤدى واجبه فى حالى سكره وصحوه فيقول:

ولقد شربت من المدامة بعدما
ركد الهواجر بالمشوف (١) المعلم
بزجاجة صفراء ذات أسرة
قرنت بأزهر فى الشمال مفدم (٢)
فاذا شربت فاننى مستهلك
مالى وعرضى وافر لم يكلم
واذا صحوت فما أقصر عن ندى
وكما علمت شمائلى وتكرمى

لا أظن أن عنترة أول من وصف الخمرة بأنها تحمل على السخاء ، وقد قال ابن كلثوم فى هذا :

---

(١) المشوف : المجلو وهو هنا القدح .

(٢) المفدم : مشدود الفم .

ترى اللحز (١) الشحيح اذا أمرت
عليـــه لما لـــه فيهـــا مهينـــا

ولكن فى قول عنترة (وعرضى وافـر لم يكلـم) التفاتة شاعر فحل جديرة بكل تقدير .

الخلاصة : ان عنترة لم يعالج فى معلقته موضوعا جديدا كما فعل طرفة فى فلسفته ، وزهير فى أمثاله ، وابن حلزه فى دفاعه عن حقوق قبيلته ، وانه ـ اعنى عنترة ـ لم يأت فى نسيبه بما ينتظـر منـه كشاعر عاشق ، ولكنه أخلص فى فخره كل الاخلاص ، فجادت معانيه ، وحسنت ألفاظه ، ولطفت تراكيبه ، وقد بذلت جهدى لأتبين الطابع الخاص الذى يتميز به أسلوب عنترة الشخصى من غيره فلم أجده ، وكلما ظفرت به فى دراستى لمعلقته .

انها تحتوى على شذرات جميلة ذكرت لكم أهمها ، وأن هذه الشذرات تكفى بفضل حيوية معانيها وجودة ألفاظها لرفع عنترة الى مصاف أكابر الشعراء ..

---

(١) اللحز : البخيل .

اطروحتان [١]

- كتاب (الادب العربي قبل الاسلام) - سبب تأليفه - نقله الى الفرنسية - الفشل في عرضه على أنه أطروحة في السوربون - أثر المستشرقين في ذلك - سياسة المستشرقين الاستعمارية المستترة وراء برقع العلم - العزم على وضع أطروحة فرنسية في موضوعها كما في لغتها - الادب الفرنسي المنحل في القرنين السادس و السابع عشر - عدم تأثيره على الادب الفرنسي الصحيح - عود الى الشعر الجاهلي - الدفاع دون المعلقات السبع - فساد زعم حماد الراوية - شاعريته - عجزه عن وضع المطولات السبع - استحالة صدورها عن شاعر واحد - الخلاصة .

---

(١) ٩-١٠-١٩٣٨ .

سيداتى سادتى :

طلب الى (١) ان اتحدث امام المذياع عن كتابى (الأدب العربى قبل الاسلام) الذى كان نقله الى اللغة الفرنسية وعرضه بشكل اطروحة فى السوربون ؛ من أهم اغراض رحلتى الى اوروبا ، والذى ادمجت عدة فصول منه باحاديثى التى اذعتها عن الأدب الجاهلى . وانا ملخص لحضراتكم فى سلسلة احاديث ـ هذا اولها ـ أهم ما بقى من الكتاب المذكور .

سأتحدث اليكم ايها السادة فى هذا المساء عما ادعيه من صحة الشعر الجاهلى بوجه عام ، والمطولات السبع المعروفة (بالمعلقات) بنوع خاص . وسأدرس فى حديثين آخرين خصائص هذه المطولات ؛ الأدبية ، والفنية ، ودلالتها على حياة العرب العقلية والاجتماعية . وقبل ان اضيع عليكم وقتكم بكل هذه الاحاديث ؛ أرى ان اذكر لحضراتكم بايجاز : متى ؟ ولماذا ؟

(١) كان هذا الطلب ناشئا عن المطاعن التى وجهت الى بسبب نيلى اجازة الدكتوراه فى اطروحة فرنسية بحتة .

وضعت كتابى (الأدب العربى قبل الاسـلام) والاسباب التى حالت دون عرضه بشكل اطروحة فى السوربون .

عندما اصدر الدكتور طه حسين كتابه (الشعر الجاهلى) وقامت حـوله الضجة المعـروفة قرأته اولا قراءة سـطحية سريعة ، ثم درسـته بامعـان ، وتدبرته مليا ، فلاحظت ان الفكرة التى كتب من اجلها وهى : « انكار الشعر الجاهلى والاعتقاد ان الأدب العربى الحقيقى يبتدىء بالقرآن ، غير صحيحة . وان الصواب هو الاعتراف بكثير من الشـعر الجاهلى ولا سـيما ـ المعلقات ـ او ـ المطولات السـبع ـ ولذلك عقدت النية على وضع كتاب لتأييد هـذا الرأى ، وقد أنجزت وضع الكتاب فى سنة ١٩٢٩ ودرسته فى جامعة آل البيت ، فلما أتيح لى السفر الى أوربا وطدت العزم على تحقيق غرضين ـ أحدهما : درس اللغة الفرنسية وآدابها درسا كافيا ، لأنى كنت ولا أزال مقتنعا بأن اتقان لغة غربية أمر لا بد منه لرجل مثقف . وثانيهما : نقل ذلك الكتاب الى الفرنسية وتقديمه بشـكل أطروحة فى السوربون . وعندما

أحزرت من جامعة مونبيليه الشهادة التى تخولنى حق وضع
أطروحة طلبت بطريق البريد الى عميد كلية الآداب
بباريس أن يسمح لى بوضع أطروحة فى الأدب العربى
الجاهلى ، وفصلت له البحوث التى أنوى أن أعالجها تفصيلا
كافيا ، فأذن لى بالعمل ، ونقلت الكتاب الى الفرنسية بشىء
من التحوير اقتضته دراستى الاولى للأدب الفرنسى ، ولكن
المسألة تطورت بعد ذلك حتى وصلت الى المستشرقين فقضى
على المشروع قضاءا مبرما ! ذلك لان سياسة المستشرقين
الفرنسيين المصطبغة بصبغة علمية ترمى الى انكار شخصية
العرب الأدبية ؛ فهم يرفضون الشعر الجاهلى كله رفضا
تاما ، ولا يعترفون بصبغة أدبية فنية للقرآن . كما انهم
ينكرون أن تكون خطب نهج البلاغة ورسائله وحكمه
للامـــام على ـ ع س ـ : ويعتبرون عبدالحميد بن يحيى
الكاتب شخصية خيالية كامرىء القيس وطرفة وزهير
وغيرهم من الشعراء الجاهليين ! . ولا يبدأ النثر الفنى
عندهم ـ وهو الجزء الدال حقيقة على التفكير والتحليل

والتفنن فى البيان ـ الا بابن المقفع ! • أى انه يبدأ برجل أجنبى ! ! ـ وقد قال لى الاستاذ ماسنيون ـ بصريح العبارة عندما فاتحته بشأن كتابى (الأدب العربى قبل الاسلام) « اننا معاشر المستشرقين ننكر ان يكون هناك شعر جاهلى ! • وليس بيننا سوى مستشرق انكليزى واحد يقول بعكس هذا » • ومما زاد بالطين بلة أن الاستاذ ماسنيون درس هويتى السياسية المتواضعة فى أثناء زيارته بغداد عام ١٩٣٤ فساءه أن اكون من أنصار الوحدة العربية التى لا تروق له ولا لغيره من المستشرقين الفرنسيين المعاصرين • ولا أنسى أنه بدأنى عندما زرته للمرة الاولى بعد رجوعه الى باريس بقوله : « أنت تشتغل بالسياسة ؟ ! » فقلت : كنت اشتغل بالسياسة ولكننى الآن طالب علم فقط • وأردف سائلا : « متى بدأت حياتك السياسية ؟ ومتى انتهت ، والى أى حزب كنت تنتمى ؟ » فكنت أجيبه على أسألته بدهشة حدت بى الى أن أقول له ـ فى النهاية ـ : « انك تهتم بحياتى السياسية القصيرة والبسيطة

جدا ، مع انى لم أشتغل يوما ما ضد فرنسا ! ! » • فقال : « هذا صحيح » وانصرف الى البحث عن الاطروحة فتكلم عنها بلهجة حملتنى على اليأس التام • ومن ثمة صممت على وضع اطروحة فى الأدب الفرنسى رغم صعوبة هذا العمل ورغم نصائح الاساتذة والاصدقاء الذين كاشفونى جميعا بامكان الخيبة وأشاروا على بالعدول عن القيام بهذه التجربة ، لكننى آثرت المضى فى سبيلى • وكم كان سرورى عظيما ؛ عندما بدأت بتنفيذ خطتى الجديدة لأنى شعرت بالفوائد الجمة ، التى كان يتعذر حصولى عليها ، لو لم أكن مضطرا لاكمال دراستى بتأليف رسالة فى موضوع فرنسى بحت •

ونعود الآن الى تلخيص ما نريد تلخيصه من كتاب (الأدب العربى قبل الاسلام) بشأن اثبات الشعر الجاهلى ولا سيما المعلقات :ـ

أما أن هناك شعرا قيل فىالاسلام ونسب الى الجاهليين ؛ فهذا ما لا شك فيه ، ولكن أيجوز أن يكون هذا الشعر

المنحول وسيلة لانكار الشعر الجاهلي ـ كله أو اكثره ـ ؟!..
هذا ما نشك فيه كل الشك .

فى آداب الأمم الاخرى شعر منحول ونثر مفتعل ، ولكن هـذا الشعر المنحول ، وذلك النثر المفتعل لم يحملا نقاد الأدب يوما مـا على انكار اقسـام الأدب الاخرى المعاصرة لذلك الأدب المفترى .

لا يرتاب اليوم أحـد من النقدة الفرنسيين بأن جميع المؤلفات التى كانت تنسب الى ـ ربله ـ فى القـرن الماضى ليست له ـ عدى مجموعة « بنتك ريل » ـ

ولكن أجـرؤ أحد على القـول بأن ـ ربله ـ شخصية خياليـــة ـ لان اكثر المؤلفات التى كانت تنسب اليـه فى السابق ليست من نتاج قريحته ؟ ! .. ـ أم على الزعم بأن كتابه النفيس « بنتك ريل » مختلق مكذوب ؟ !

بل ان هناك ما هو اكثر من ذلك ، فلا نزاع ـ على ما أظن ـ بأن القرن السابع عشر أرقى عصور اللغة والأدب الفرنسيين ، ومع ذلك لـم يخل الأدب الفرنسى فى ذلك

العصر من الافتعال والانتحال : ففى المجلد العاشر من آثار كورنى طبعة ـ مارتى لافو ـ طائفة من المطولات والمقطوعات مجموعة تحت عنوان (ما نسب الى كورنى) ، وكان من الشائع أن السبب الذى حدى بكورنى الى ترجمة صلوات ـ توما اكامبيس ـ عن اللاتينية ؛ توبته من نظم قصيدة اباحية عنوانها (الفرصة الضائعة التى وجدت) وقد دخلت هذه الفرية فى كتاب ـ فونتينل ـ ابن أخى كورنى نفسه ، ولكننا أثبتنا عند بحثنا عن شعر كورنى الغنائى الدينى أن كل ذلك لم يكن الا من قبيل الافتراض والحدس ، وأن السبب الحقيقى الذى حمل كورنى على القيام بتلك الترجمة الصعبة هو رغبته فى نشر عقيدته الدينية .

وفى المجلد الرابع من (آثار راسين) الذى يفضله البعض على كورنى نفسه حفنة من الشعر المنسوب مجموعة تحت عنوان (ما يضاف الى راسين) ، وهناك شعر غير قليل محمول على ـ لافنتين ـ و ـ موليير ـ وغير خاف أن هؤلاءهم اساطين الأدب الفرنسى فى القرن السابع عشر . فهل اتخذ

أحد النقاد الفرنسيين ـ القدماء أو المحدثين ـ هذه الاشعار المنتحلة وسيلة لانكار بعض آثار كورنى أو تجاهل جزءا ولو صغيرا من أناشيد راسين أو من مقطوعاته ـ ولا أقول من رواياته ـ ؟ ! ..

ان انكار الشعر الجاهلى ـ كله أو اكثره ـ لان هناك شعرا مفتعلا منسوبا الى بعض الجاهليين ـ تطرف فى الشك ـ ان لم نقل فى الجحود ـ لا يقره العلم ، ولا يجيزه المنطق . على انى لا ادافع الآن عن الشعر الجاهلى كله ، أو اكثره ، فذلك مما لا تسمح به ظروفى الراهنة ، ولكنى أحاول فى هذا الفصل أن اثبت جاهلية المعلقات أو ـ المطولات السبع ـ ومتى تم لنا القول بأن هذه القصائد السبع جاهلية حقا ، فاننا نكون قد انقذنا أمجد صفحات الشعر الجاهلى من الجحود والانكار ، ذلك لان هذه المطولات أقوى وأجمل وأمتع ما وصلنا من الشعر الجاهلى على الاطلاق .

ان اكبر سلاح يستعمله منكروا الشعر الجاهلى للطعن فى المعلقات : هو القول بأن حماد الراوية المعروف

بـ « الكذاب » أول من جمعها ودونها فى سفر • ولست أريد أن أناقش فى فساد ذمة حماد ، ولكنى أقول : انه أعجز بكثير من أن يقول هذه المطولات السبع أو واحدة منها أو جزءا تاما من اجزاء احداهن • ان حمادا يستطيع أن يقول البيت أو الابيات القليلة من الشعر المبتذل وأن يدسها فى شعر أحد الجاهليين ليدل بذلك على انه اغزر علما واصدق رواية من غيره من الرواة ، ولكنه لا يستطيع أن يقول قصيدة واحدة ذات شخصية أدبية وقيمة فنية ! ! • وقد أحصيت ما عرف لحماد من الشعر ، على انه له ، أو على أنه محمول على بعض الشعراء الجاهليين أو المخضرمين ، فكان كله أربعة وعشرين بيتا انشدكم اياها كلها لتتبينوا منها شاعرية حماد ومبلغ قدرته على وضع الشعر البليغ واضافته الى فحول الشعراء • فأما شعره المروى على انه محمول على الشعراء الجاهليين والمخضرمين فهو عبارة عن اثنى عشر بيتا نسب منها اثنان الى زهير وهما :

لمن الديار بقنة الحجر
أقوين مذ حجج ومذ دهر
قفر بتدفع النحائث (١) من
ضفوى الات الضال فالسدر

وأضيفت العشرة الباقية الى الحطيئة وهى :

هل تعرف الدار من عامين أو عام
دار لهند بجزع الحرج فالدام
تحنو لاطلائها (٢) عين ملمعة (٣)
سفع الخدود بعيدات من الذام

. . . .

وجحفل كسواد الليل منتجع
أرض العدو ببؤس بعد انعام
جمعت من عامر فيه ومن أسد
ومن تميم ومن حاء ومن حام

---

(١) النحائث : الآبار .
(٢) الطلى : فرخ الظبية .
(٣) ملمعة : رافعة اذنابها بعد اللقاح .

وما رضيت لهم حتى رفدتهم
من وائل رهط بسطام باصرام(١)
فيه الرماح وفيه كل سابغة
جدلاء مبهمة من نسج سلام (٢)
وكل أجرد كالسرحان أضمره
مسح الاكف وسقى بعد اطعام
وكل شوهاء طوع غير آبية
عند الصياح اذا هموا بالجام
مستحقبات روایاها (٣) جحافلها
يسمو بها أشعرى طرفه سام
لا يزجر الطير ان مرت به سنحا
ولا يفيض على قدح بأزلام

وأما شعره المروى على أنه له فهو عبارة عن اثنى عشر

(١) الاصرام : البيوت المجتمعة .
(٢) جدلاء : مجدولة رقيقة وسلام هو سليمان بن داود عليهما السلام وانما اراد داود .
(٣) الروايا : الابل التى تحمل الازواد والاثقال على ان تجنب اليها الخيل .

بيتا نظم ستة منهـا فى طلب جبـة ، والستة الاخـرى فى النسيب . روى صاحب الاغانى (١) ، ان حمـادا الراويـة كتب الى أحد الاشراف هذه الابيات :

ان لى حاجـة فرأيك فيهـا
لك نفسى فدى من الاوصاب
وهى ليست ممـا يبلغـه غـ
ـيرى ولا يستطيعها فى كتاب
غير انى أقولهـا حين ألقـا
ك رويدا أسرها فى حجـاب

فكتب اليـه صاحبه ، اكتب الى بحاجتك لاقضيهـا لك ، . فكتب اليه :

اننى عاشـق لجبتـك الدكـ
ـناء عشقا قد حال دونالشراب
فاكسنيها فدتك نفسى وأهلى
اتبـاهى بهـا على الاصحـاب

---

(١) ج ١٦ وتروى هذه القصه لمطيع بن اياس .

ولك الله والامـانة أن أجـ

ـعلهـا عمرهـا أمير ثيـابى

فبعث بها اليه ،،

وانشدكـم الآن نسيب حماد وهو قطعتـان تتألف احداهما من بيتين والثانية من اربعة أبيات وهما :

تنكر من سعدى وأقفر من هند

مقامهما بين الرغامين بالفـرد

محل لسعدى طالما سكنت بـه

فأوحش ممن كان يسكنه بعدى

. . . .

عفت دار سلمى بمفض الرغام

رياح تعاقبهـا كل عـام

خـلال الحلـول بتلك الطلول

وسحب الذيول بذاك المقـام

وانس الـديار وقرب الجـوار

وطيب المـزار ورد السـلام

ودهــر عزيز وعيش سـرور

ونأى الغيور وحسن الكـلام

أمن المعقول أن شويعرا هذا حظه من نظم القريض ؛ يقول المطولات السبع ثم ينحلها الناس ؟ ! أما انى لأعترف بعجزى الشـديد عن تبرير زعـم كهذا على أن هنـاك ما يقضى باستحالة صدور المطولات السبع عن حماد : أو عن أى راوية أخر وهو الاختلاف فى الاساليب .

فقد رأيتـم أن الزخرفـة البيانيـة وهى التشبيهـات والاستعارات الكثيرة الرائعـة خير مـا يميز أسلوب امرىء القيس ، وان البساطة التامـة واجتناب الفضول والحشو ، أبرز الصفات التى يجدها الناقد الفنى فى أسلوب زهير .

وأن الموسيقية تغلب على لغة ابن كلثوم فتهب مطولته مسحة شعرية جميلة ، على حين يسيطر المنطق على مطولة ابن حلزة حتى يجعلها أشبه بخطبة محام بارع يهمه أن ينجح فى الدفاع عن قضيته وليس يعنيـه مطلقا أن تخلو خطبته من الشـعر أو أن تشتمل على شىء منـه . ، . أيتناقض حمـاد

هذا على نفسه فيكون مرة من أصحاب القريض المزخرف ، وتارة من أولى الشعر البسيط ذى النزعة الفلسفية . وطورا من ذوى اللغة الموسيقية ، وآونة من أرباب البيـان المنطقى الجاف ؟ ! ايتعذر جمع هذه الصفات على كل شاعر فحل فى الجاهلية والاسلام ويتيسر لحماد الذى سمعتم (شعره) ؟ ! ..

الحقيقة أن حمادا أعجـز بكثير من أن يختلق المعلقات وأن ينحلها أشخاصا خياليين أو حقيقيين ، بل أن اختلاقها على يد شاعر واحد مهمـا سمت شاعريتـه أمر غير ممكن نظرا لما تمتاز به كل واحدة منهن من مميزات ومشخصات لا يمكن أن تتوفر فى شاعر واحد . أما قيمة هذه المطولات الأدبية والفنية ومبلغ دلالتها على حياة العرب الاجتماعية والعقلية فهذا ما سنعرض له فى الحديثين التاليين .....

———:o:———

قيمة الشعر الجاهلي [١]

الادبية والاجتماعية والفنية

— ١ —

– تمهيد – موضوعات المطولات السبع –: الطبيعة في شعر امرئ القيس ، في شعر لبيد ، في شعر عنترة ، – التحدث عن اللهو – دلالته على الحياة والاخلاق – المرأة – ماتنهم به العرب من سوء معاملتها – تفنيده – مقارنة بين حوادث الوأد في الجاهلية وبين بعض حوادث العالم المتمدين في الوقت الحاضر – دلالة المطولات السبع على الهيام بالمرأة – تصوير محاسن المرأة في هذه القصائد – اثرها على حياة العربي الخلقية والنفسية –

(١) ٢٣ كانون الاول ١٩٣٨ .

أيها السادة ، أثبت فى حديث سابق أن المطولات السبع المعروفة بالمعلقات ؛ شعر جاهلى لا غبار عليه. وأحاول الآن درس ما لهذه القصائد من المميزات الأدبية ، والاجتماعية ، والفنيـــة .

يروقنا الشعر فنستحسنه ونستجيده وربما نحفظه ونتمثل به اذا أعجبنا فى موضوعه أو فى أسلوبه أو بهما معا . أقول فى موضوعه ولا أقول فى معناه ؛ لأن الموضوع أعم من المعنى بكثير . وأقول فى أسلوبه ولا أقول فى لفظه ؛ لأن الأسـلوب أشمل وأوسع جـدا من اللفظ . ويعجبنى أن أذكر هنا ـ على سبيل الاستطراد ـ أننى لا أعرف ناقدا فرنسيا ـ حتى ولو من نقاد القرن السادس عشر ـ يدرس القريض ويناقشه فى حدود هـذا المقياس الضيق ؛ مقياس اللفظ والمعنى . بينا أحدث نقادنا وأوسعهم شهرة واكثرهم ممارسة للبحث والدرس لا يزالون محافظين على نقد الأدب فى حدود هذا المقياس .

على كل حال لننظر ما هى قيمة المطولات من حيث

الموضوعات ومن حيث الأساليب .

ان الطبيعة واللهو والغرام والاعتزاز بالنفس أو القبيلة ، والحياة البدوية العامة ، والفلسفة الاجتماعية ؛ هى الموضوعات المطروقة باسهاب وايجاز فى المطولات السبع . وواضح أن كثرة هذه الموضوعات من أنفس ما عالجه الشعراء فى كل زمان وفى كل مكان .

والآن لنستعرض ما ورد من وصف الطبيعة فى المطولات السبع :

فقد وصفها امرؤ القيس ولبيد وعنترة فأجاد كل منهم فى وصفها اجادة تامة . وأول هؤلاء الشعراء أعنى امرأ القيس أكثرهم وصفا لمناظر الطبيعة ؛ فقد وصف الثريا فى أثناء قصه زيارة احدى خليلاته فقال :

اذا ما الثريا فى السماء تعرضت
تعرض أثناء الوشاح المفصل

ووصف الليل عند تبرمه بهجر أخرى وسهره بسبب صدودها عنه وهجرها له فقال :

وليل كموج البحر أرخى سدوله

على بأنـــواع الهموم ليبتلـــى

وختم مطولته باثنى عشر بيتا وصف بها البرق والمطر والسيل أبلغ وصف . ومن يقف على هذه الأبيات يجد أن امرأ القيس قد تدرج ببسط أفكاره هنا تدرجا دقيقا ، وأن المقاصد والأفكار قد تسلسلت فى أبياتـه تسلسلا منطقيـا جميـــلا .

وقد تحدث لبيد عن هذه الظاهرة الطبيعية - أعنى - (هطول الأمطار) عند الكلام عن ديار أحبته فوصفها وما نشأ عنهـا من خصب فى المرعى ، وجمال فى المنظـر وصفا محكما ، ولعل أجمل بيت فى هذا الجزء من معلقته قوله :

وجلى السيول عن الطلول كأنها

زبر تجــد متونهـــا أقلامهـا

أما عنترة فلم يترك لنا فى هذا الباب سوى أبيات قليلة جاءت عرضا فى أثناء وصفه حبيبته ، سـأنشدكم أياها فى مكان آخر من هذا الحديث .

لاشك فى أن هـــذه القطع القليلة التى أشرنا لها فى وصف الطبيعة لا تخلو من بساطة ، على أنه من الضرورى أن تكون كذلك ، لأنها نظمت فى كبد الصحراء وقبل زهاء أربعة عشر قرنا ، ولكنها من جهة أخرى ذات قيمة كبيرة لأنها تحفظ لنا صور الأشياء التى كانت تملأ مخيلة الشاعر البدوى وتخلب لبه وتشحذ قريحته ، ولأنها ملأى بتفاصيل دقيقة وتشابيه طريفـة تدل على قوة الملاحظة ونفاذ الحس وخصب المخيلة ؛ فليس من شك فى أن تشبيه الثريا بالوشاح ، والليل بموج البحر ، ولمعان البرق بمصابيح الراهب ، فى قول امرىء القيس :

يضيىء سـناه أو مصابيـح راهب

أهال السليط (١) بالذبال المفتل

وغير هذا من التشابيه التى يضيق عن ذكرهـا المقام ـ وهى لا تقل حسنا عما ذكرت ـ دليل على صفاء الفطرة ، وحدة الذكاء ، وبراعة الخاطر ؛ وهذا ما نريد أن نستنتجه

---

(١) السليط : الزيت .

من هذه المطولات قبل كل شیء ..

أما اللهو فقد شغل مكانا ليس باليسير فى هذه القصائد. فامرؤ القيس وطرفة ولبيد وعنترة وابن كلثوم جميعا يحدثوننا عن نصيبهم من لذة هذه الحياة وبهجتها. والغريب أن أكثر هؤلاء الناس يصفون لنا أخلاقهم ضمنا ، وصراحة ، عندما يحدثوننا عن ملاذهم وملاهيهم . فمما يحبب الحمرة لابن كلثوم : أنها تخلق من الرجل البخيل رجلا سخيا ، مفضالا ، ومما يفخر به عنترة : أنه مستهلك ماله عند الشرب مع أن عرضه (وافر لم يكلم) ، ولا يعدو طرفة هذا الغرض حين يقول :

متى تأتنى أصبحك كأسا روية
وان كنت عنها غانيا فاغن وازدد

ونحن لا نفهم مما سلف أخلاق القوم فحسب ؛ بل اننا نتبين حياتهم وشيئا من أساليب معيشتهم . فالظاهر انهم كانوا يحيون حياة لا تخلو من لذة ونعيم وبهجة وسرور ، وبعبارة أخرى أنهم كانوا يتأثرون فى حياتهم وأساليب

معيشتهم بالمدنيات المجاورة لهم تأثرا ظهرت دلائله واضحة بينة فى أشعارهم .

ومما يجب أن ندرسه بدقة وعناية فى هذه المطولات ؛ شعور أصحابها نحو المرأة .

يعتقد البعض أن عرب الجاهليـة كانوا قليلى الاهتمام بالمرأة ، أو قل شديدى الاحتقار والامتهان لها ، يسومونها سوء العذاب ، ويضطهدونها ما وجدوا الى ذلك سبيلا !!.. وقد شملتنا نحن عرب اليوم هـذه التهمة الباطلة فى بعض الأوساط ، فأذكر أن فرنسيا غير مثقف قال لى ذات يوم فى مقهى بمونبليه : أأنت عربى وبغدادى أيها السيد ؟ قلت : نعم . قال : أصحيح أنكم تبيعون المرأة بيعا ؟ قلت : نعم يا سيدى ولكن على ان يكون قلب الرجل ثمناً لها وطبيعى أن كل ما نرمى به من هذا النوع ـ سواء أكان ذلك فى غابر الزمن أو حاضره ـ افك فى افك .

قد يكون صحيحا أن قيس بن عاصم أحد رؤساء بنى تميم ارتكب جريمة الوأد ، لأن احدى قريباته أساءت اليه والى

بيتها اساءة لا تغتفر . ذلك أنها أسرت فى غزوة ، فلما طلب خالها (قيس بن عاصم) أطلاق سراحها لقاء فدية ، رفضت العودة الى بيت أبيها مفضلة البقاء عند آسرها لأنها أحبته .
ومن الممكن ان نفرا قليلا جدا من الأعراب الجفاة فعل فعل قيس هذا ، وهؤلاء الآباء القساة هم الذين مقتهم القرآن غير مرة . ولكن كم هى الحوادث التى جرت من هـذا القبيل ؟ ! أؤكد لكم أنها قليلة جدا ، بل أنها أقل من القليل ، ومثلها يجرى فى كل زمان وفى كل مكان . ومن يتصفح جرائد العالم المتمدين فى هذا العصر يجد فيها أمثالا كثيرة لهذه الحوادث ، وأذكر أن الصحف الفرنسيـة روت فى صيف ١٩٣٧ حادثا ملخصـه : أن وكيل ضابط فرنسى فى ، أفينو ، تآمر وزوجته على قتل أولاده الثلاثة جوعا ، وقد اكتشفت الشرطة ـ بنـاء على طلب الجيران الذيـن رابهم اختفاء الاولاد الثلاثة فجأة ـ هذه المؤامرة الدنيئة واذاعت عنها التفاصيل الكافية وأعتقل الأبوان البربريان ولكن بعد أن مات أحد الاولاد الثلاثة جوعا وأشرف أخواه على الموت

لنفس السبب ، ٠ !! ٠٠أينسجم هذا مع وجود المؤسسات الخيرية المعدة لتخفيف ويلات الانسانيـة وآلامها من كل نوع والتى تغمر أرض فرنسا ؟ ؟ !

على أننا اذا اقتنعنا بأن وأد البنات كان عادة شـائعة عند عرب الجاهلية ، فاننا بحاجة لايجاد حل لمشكلة الأمهات اللواتى ولدن كل هؤلاء الأبطال الذين تألفت منهم تلك الجيوش الجرارة التى اكتسحت بلاد فارس وجزءا كبيرا جدا من امبراطورية الروم ، أما انه اذا كان أدب كل قوم مرآة حياتهم وعاداتهم واخلاقهم وتقاليدهم ؛ فالمطولات السبع وهى أصدق وأحسن ما وصلنا من الشعر الجاهلى تشهد أن المرأة كانت تشغل أعظم مكان بنظر العربى الجاهلى وتحتل أسمى محل من قلبه وانه لمن الأدلة القاطعة على ذلك أن خمسا من هذه المطولات السبع استهلت بالوقوف على منازل المرأة والحنين الى عهودها السالفة ، على أن المطولتين اللتين لم تستهلا بذكر أطـلال المرأة ، وهما : مطولتا عمرو بن كلثوم ولبيد قد تلافتا هـــذا النقص فتحدثتا عن المرأة فى

أقسامهما الاخرى .

قد يقال أن النسيب الذى تصدر به القصائد تقليدى فى الغالب ، أى أنه لا يعبر عن عاطفة حقيقية ولا عن شعور صادق . ولا أريد أن أناقش فى هذا ، لكن أليس فى التزام ذكر المرأة ، والوقوف على ديارها وآثارها فى صدور اكثر قصائد الشعراء ؛ دليل لا ينقض على أن عرب الجاهلية كانوا يحلون المرأة المكانة اللائقة بها فى المجتمع ويشعرون نحوها أرقى شعور وأسماه ؟ ! ! ..

لم يقتصر أكثر شعراء المطولات على أستهلال قصائدهم بالوقوف على منازل المرأة ، بل انهم وصفوا محاسنها وصفا يدل على تقدير جمالها أعظم تقدير ويعبر عن شغفهم بها أيما شغف ، وقد سمعتم وصف امرىء القيس البالغ منتهى الجمال والدقة للمرأة فى حديث سابق فاسمعوا الآن ما يقول غيره من أصحاب المطولات فى هذا الشأن :

قال طرفة :

وفى الحى أحوى (١) ينفض المرد (٢) شادن (٣)

مظاهـــر (٤) سمطى لؤلؤ وزبرجـــد

خـــذول (٥) تراعى ربربا (٦) بخميلـــة

تنـــاول اطـراف البريـر (٧) وترتدى

وتبســم عن ألمى (٨) كأن منــــورا

تخلل حر الرمـل دعص لـــه نـــدى

ووجـــه كأن الشمس حلت رداءهـــا

عليـــه نقى اللون لـــم يتخـــدد

وقال عنترة :

اذ تستبيك بذى غروب واضـــح

عـذب مقبلـه لذيذ المطعـــم

---

(١) الأحوى : ذو سمرة فى الشفتين أو هو شديد سواد الجفنين ·

(٢) المرد : ثمر الأراك ·

(٣) الشادن : الظبى ·

(٤) مظاهر : مضاعف ·

(٥) خذول : متخلفة عن القطيع لمرافقة خشفها ·

(٦) الربرب : القطيع من بقر الوحش ·

(٧) البرير : ثمر الأراك ·

(٨) الألمى : أسمر اللهات ، وتستحسن هذه السمرة لانها تبين بياض الاسنان

وكأن فارة (١) تاجر (٢) بقسيمة (٣)
سبقت عوارضها (٤) اليك من الفم
أو روضة أنفا (٥) تضمن نبتها
غيث قليل الدمن (٦) ليس بمعلم (٧)
جادت عليها كل بكر حرة
فتركن كل قرارة (٨) كالدرهم
وخلا الذباب بها فليس ببارح
غردا كفعل الشارب المترنم
هزجا يحك ذراعه بذراعه
قدح المكب على الزناد الاجذم (٩)

---

(١) الفارة : المسك ، سمى كذلك لفوران الطيب منه .
(٢) التاجر : العطار .
(٣) القسيمة : اناء الطيب .
(٤) العوارض : جمع عارضة ، وهى منبت الاضراس .
(٥) الروضة الأنف : التامة ، أو التى لم ترع .
(٦) قليل الدمن : قليل الاقذار .
(٧) ليس بمعلم : ليس بمعروف .
(٨) القرارة : الحفرة .
(٩) الأجذم : مقطوع اليدين .

وقال عمرو بن كلثوم :

تريك اذا دخلت على خــلاء
وقد أمنت عيون الكاشحينـا
ذراعى عيطـل أدمـــاء بكر
تربعت الأجـارع والمتونـــا
وثديا مثل حق العـاج رخصا
حصانا من أكف اللامسينـــا
ومتنى لدنـــة طالت ولانت
روادفها تنوء بما يلينـــــــا

وبعد أرأيت كيف تتفاوت اذواق هؤلاء الشعراء فى وصف المـرأة ؟ أرأيت كيف تتباين مشاربهم فى تصويـر جمالها ؟ أرأيت كيف تدل كلماتهم الغرامية على عواطفهم الخاصة ؟ وكيف ترمز تشابيههم البدوية الى الحياة التى كانوا يحيونها والبيئة التى كانوا يعيشون فيها ؟ أليس فى هــذا كله دليل على أنهم مخلصون فى نسيبهم كل الاخـلاص صادقون بتشبيبهم كل الصدق ؟ ؟

على أن المرأة ليست موضع غرام الشاعر العربى الجاهلى ومسرح خياله ومبعث شعوره وشعره فحسب ، بل انهـا ذات أثر كبير على حياتـه الخلقيـة والنفسية ، فهو يقف المواقف الحميدة فى ميادين السلم والحرب ويجود بماله ونفسه ليس فقط ارضاء لسجيته ، بل طلبا لرضى حبيبته أيضا ورغبة بكسب أعجابها به واكبارها له ، قال عنترة :

هلا سألت الخيل يا أبنة مالك
ان كنت جاهلة بما لـم تعلمـى
يخبرك من شهد الوقيعة اننى
أغشى الوغى واعف عند المغنم

اذن فهو يفعل فعل الكرام فى تمزيق صفوف الأعداء وفى الترفع عن السلب والنهب لا لأنه كريـم فحسب ، ولكن ليفخر بذلك بين يدى عبلة الخالدة ، وقال عمرو بن كلثوم :

على آثارنـا بيض كـــرام
نحاذر أن تفارق او تهونـــا

ظعائن من بنى جشم بن بكر

خلطن بميسم حسبا ودينـــا

أخـــذن على بعولتهن عهـدا

اذا لاقوا فوارس معلمينـــــا

ليستلبن أبدانا (١) وبيضا (٢)

وأسرى فى الحديد مقرنينـــا

اذا ما رحن يمشين الهوينـــــا

كما اضطربت متون الشاربينا

يقتن جيادنــا ويقلن لستـــم

بعولتنـــــا اذا لـم تمنعونـــا

اذا لـم نحمهن فلا حيينـــــا

لشىء بعدهن ولا بقينـــــــا

---

(١) الابدان : الدروع .

(٢) البيض : الخوذ من الحديد .

وما منع الظعائن مثل ضرب

ترى منه السواعد كالقلينا (١)

فأنت ترى من هـــذه الأبيات أن المرأة من اكبر دواعى ثبات العربى فى ميادين القتال والنضال ومن أهـم العوامل فى تكوين شجاعته الفائقة وبسالته الخارقة .

———:o:———

(١) القلون : جمع قله وهى خشبة يلعب بها الصبيان .

قيمة الشعر الجاهلي [1]

الادبية والاجتماعية والفنية

— ٢ —

- الفخر - نبوغه في المطولات السبع - استهجانه - رأى بسكال (Pascal) فيه - تبرير فخر ابن كلثوم - استحسان فخر عنترة - الاعجاب بفخر طرفة - قيمة المعلقات السبع التاريخية - الخطرات الفلسفية في هذه المطولات - فلسفة طرفة - عناية الغربيين بمعلقته - خصائص المطولات السبع الفنية - لمحة في أساليب كل من امرئ القيس وزهير وابن كلثوم وابن حلزة - أسلوبا لبيد وطرفة - وجوه الشبه الفنية بين القرآن والمعلقات السبع - الخلاصة -

---

(1) ٢٩-١٢-١٩٣٨ .

أيها السادة ، رأيتم فى حديث الجمعة الماضية :ـ أن الطبيعة ، واللهو ، والغرام تشغل مكانا غير يسير فى المطولات السبع ، وترون الآن ؛ أن لكل من الاعتزاز بالنفس او القبيلة ، وان شئتم فقولوا للفخر ، وللحياة البدوية العامة ، وللفلسفة الاجتماعية ؛ شأنه فى هذه القصائد الخالدة . وأول هذه الموضوعات ـ أعنى الفخر ـ اكثرها ذيوعا فى مطولاتنا ، فليس بين أصحابها ـ اذا استثنينا زهيرا بن أبى سلمى الزاهد المتورع ـ من لم يفخر بنفسه أو بقبيلته .

أكذبكم أيها السادة اذا قلت لكم اننى أحب الفخر بالنفس أو أجيزه لشاعر أو ناثر وتعلمون كلكم ان الشرائع الآلهية ، والتقاليد الاجتماعية الصحيحة تنهانا عنه أشد النهى ، وقد زادت دراسة الأدب الفرنسى رأيى فى استهجان الفخر بالنفس قوة ورسوخا ؛ فلست أعرف فى كل ما قرأت من الشعر الفرنسى سوى بضع قصائد فخرية عوتب قائلوها فى نظمها لأنها غير دالة على التواضع ، وقديما قال ـ بسكال ـ Pascal ـ (Le moi est haïssable)

• أى ان التحدث عن الذات جدير بالكره ، ومع ذلك فأنا أبرر فخر ابن كلثوم لأننى أعتبره ضربا من الدفاع عن النفس ، ومعلوم أن الشاعر نظمه جوابا على تحدى عمرو بن هند ملك الحيرة اياه • وما يصح فى فخر ابن كلثوم يصح فى فخر الحارث بن حلزة لأنه كان أيضا مدافعا عن نفسه وعن قبيلته فيما نظم من الفخر ، ثم انى استعذب اطراء عنترة وقفاته الخالدة وضرباته الهائلة ، ذلك لأن هذا الاطراء يرسم لنا صورة صادقة من بطولته الفذة •

واذا كنت أبرر فخر ابن كلثوم وابن حلزة واستعذب اطراء عنترة نفسه ، فأنا أعجب كل الاعجاب بفخر طرفة ، لأنه يعبر عن حيوية فياضة نادرة ، ولأنه يدل على صراحة منقطعة النظير • فلا أدل على الحياة من قول طرفة :-

اذا القوم قالوا من فتى خلت أننى
عنيت فلم أكسل ولم أتبلد

• • • • • • • • • •

ولست بحـلال التلاع مخافـــة
ولكن متى يسترفـد القـوم أرفـد
وان تبغنى فى حلقـة القوم تلقنـى
وان تقتنصنى فى الحوانيت تصطـد

ولا مثل فى الصدق والصراحة أعلى من قوله واصفا ما آل اليه أمره بسبب سوء تصرفه فى شئونه وأحواله :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى
وبيعى وانفاقى طريفـى وملتدى
الى أن تحامتنى العشيرة كلهـا
فأفردت افراد البعير المعبـــد

واذن فنحن نبـرر فخـر بعض أصحـاب المطـولات ونستعذب فخر البعض الآخر ونستحسن كل الاستحسان فخر فريق ثالث .

أما الحياة البدوية العامـة فانها موصوفة فى المطولات السبع بصورة ضمنية ، ذلك أن اصحاب هـذه القصائد يعنون قبل كل شىء بشئونهم الخاصة ، ولكنهم يعطوننا

صورا صادقة من الحياة البدوية العامة فى أثناء كلامهم عن أغراضهم المباشرة ..

مما لاشك فيه أن المنازعات المسلحة وغير المسلحة التى تجرى بين الفرد والفرد وبين القبيلة والاخرى وما تستدعى هـذه المنازعات من توسـط بعض أولى الرئاسة والكلمة النافذة حقنا للدماء وصونا للارواح ومن الترافع أمام ملك أو قاض موثوق بذمته تكون أهم جزء من الحيـاة البدوية العامـة كما يصفهـا لنا التأريخ وكما نعرفهـا نحن معرفة شخصية ، والمطولات السبع حافلة بصور هـذه المنازعات وبما تنتهى اليه من عواقب محمودة ومذمومة .

أغضب عمـرو بن هند ملك الحيرة عمـرو بن كلثوم كما تقدم ، فهاجت حمية الاخير وفخر بقبيلته ملخصا حروبها وأيامها تلخيصا أشرنا الى دلالته على حياة البادية العامة فى غير هذا المكان .

ودافع الحارث بن حلزة شاعر بكر عن حقوق قبيلته فى خلاف شجر بينها وبين تغلب فقال فى ذلك قصيدته التى

سبق ان نوهنا بقيمتها التاريخية .

وأكلت الحرب عبسا وذبيان فسعى هرم بن سنان والحارث بن عوف المريان فى الصلح بين القبيلتين ، ودفعا ديات القتلى من أموالها الخاصة فأثنى عليهما زهير ثناءا عاطرا وبسط الحوادث الدامية التى انتهت بتوسطهما بسطا كافيا فى مطولته .

اذن فنحن نفهم من المطولات السبع أهم شئون البادية واكثر أحوالها دقة وخطورة . وما تدرسه فيها من حياة الصحراء متفق كل الاتفاق وما يرويه لنا عنها التأريخ فى القديم والحديث . وظاهر أن أصحاب هذه الحياة البدوية الصرفة لا يسعهم أن يقفوا حياتهم وعقولهم ونشاطهم على درس المذاهب الفلسفية المختلفة اذ ليس فى طبيعة بلادهم ولا فى شئون مجتمعهم ما يحملهم على التفكير الدقيق أو يدعوهم الى التعمق فى درس حقائق الاشياء . ولذلك فنحن لا نبحث فى المطولات السبع عن مذاهب فلسفية متسقة المبادىء ، مطردة القواعد ، وانما نبحث عن خطرات

موفقة تستفز عقل الشاعر وتفتح ذهنه وتملى عليه آراءه فى الحياة والاجتماع . ولم تحصل هذه الخطرات لغير زهير وطرفة - واذكر انى بحثت عن نصيب زهير منها فى هذا المكان - فلنقتصر اذن على الكلام عن خواطر طرفة .

ان هذه الخواطر على بساطتها عبارة عن خلاصة حسنة لفلسفة « أبيقور » كما عرفها الناس . أقول كما عرفها الناس ولا أقول كما وضعها هو ، ذلك لأن هذا الفيلسوف عندما سبرغور الحياة وحكم بأنها أقصر وأتفه من أن تساوى ما يبذله الانسان فى سبيلها من جهود وأتعاب ، دعى الى الانهماك باللذة الروحية ، أو بعبارة أخرى نصح بتثقيف العقل تثقيفا دائما يفضى الى لذة حقيقية سامية ، ولكن أتباعه فهموا فلسفته بصورة معكوسة ، فاستسلموا الى الانهماك بارضاء شهواتهم الحيوانية وبالعكوف على اللذة المادية ، وتبعهم فى ذلك « أوراس » شاعر اللاتين الكبير ، وفعل فعله كثير من الفلاسفة والشعراء والكتاب .

وقد ذهب طرفة مذهب أبيقور فى استصغار شأن

الحياة - دون علم به طبعا - ثم انه تصرف به وحوره تحويرا يوافق ميوله وأخلاقه ، فدعى الى عدم الاكتراث بالحياة والى العكوف على اللذة المادية من وجه ، ولكنه حبذ السخاء والرجولة وهما اسمى الفضائل وأرقى الأخلاق على عهده من وجه آخر ، وهكذا أخذت أبيقوريته شكلا خاصا هو ثمرة تخيله ونتيجة تفكيره .

يحدثنا هذا الشاعر الشاب عما يهمه من أمر هذه الحياة فيقول :

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى
وجدك لم أحفل متى قام عودى

فمنهن سبقى العاذلات بشربة
كميت (١) متى ما تعل بالماء تزبد

---

(١) الكميت : الخمرة التى فى لونها سواد وحمرة .

وكرى اذا نادى المضاف(١) محنبا (٢)

كسيد (٣) الغضا نبهته المتورد (٤)

وتقصير يوم الدجن(٥) والدجن معجب

ببهكنة (٦) تحت الطراف (٧) المعمد

ويقارن بين ما يئول اليه أثر البخيل الضنين بماله والمسرف الذى ينفق كل ما ملكت يده فى سبيل لذاته فيقول :

أرى قبر نحام (٨) بخيل بماله

كقبر غوى فى البطالة مفسد

---

(١) المضاف : المستغيث ويروى الصريخ .

(٢) المجنب : الفرس الذى فى يده انحناء وهى خصلة تستحسن فى الخيل ويروى « محنبا » على انه اسم لفرس الشاعر .

(٣) السيد : الذئب .

(٤) المتورد : وارد الماء . يظهر ان الذئب يكون اشد ضراوة اذا نبه وهو فى هذه الحالة .

(٥) الدجن : احتجاب السماء بالغيوم .

(٦) البهكنة : المرأة الجميلة الخلق البضة الجسم .

(٧) الطراف : الخباء .

(٨) النحام : الحريص على المال .

ترى جثوتين (١) من تراب عليهما
صفائح صم من صفيح منضد

ويفكر فى الحياة فيهوله قصرها وامكان انتهائها فى كل لحظة فيقول :

أرى الدهر كنزا ناقصا كل ليلة
وما تنقص الأيام والدهر ينفد
لعمرك ان الموت ما أخطأ الفتى
لكالطول المرخى وثنياه باليد

والطول هو الحبل الذى يضعه الراعى فى عنق الدابة ويأخذ طرفه بيده ليكون فى امكانه أن يقودها طيعة متى أراد ، وتشبيه الموت بالطول تشبيه موفق الى الغاية ، ويؤكد شاعرنا رأيه فى استصغار شأن الحياة وضرورة الاستمتاع بها بقدر المستطاع فيقول :

ألا أيهذا اللائمى أحضر الوغى
وأن أشهد اللذات هل أنت مخلدى

---

(١) الجثوة : الكومة من التراب .

فان كنت لا تستطيع دفع منيتـــى
فدعنى أبادرهــــا بما ملكت يدى

ان لحواطر طرفة أيها السادة خصومها وانصارها فى كل زمان وفى كل مكان ، ولكنها خليقة بالاعجاب على كل حال ، لأنها دليل لا ينقض على دقة ملاحظـة الشاعر وقوة ادراكه ، وقد ترجمت معلقة طرفة الى جميع اللغـات الأوربية ، فلو لم تكن ذات قيمة فلسفية وأدبية خطيرة لما عنى بها عارفوا اللغة العربيـة من الغربيين هـــذه العناية . ولنتحدث الآن عما للمطولات السبع من المزايا الفنية .

ليس من العـدل أيهـا السـادة أن نطلب الى شعـراء الصحراء الذين عاشوا فى القرنين الخامس والسادس للميلاد أن ينظموا قصائدهم على النحو الذى تستدعيه ثقافتنا ومدنيتنا فى هذا العصر . ولكننا نستطيع أن نبحث فى آثارهم عن الصفات الفنيـة التى كانت معروفة على عهدهـم وهى غير قليلة كما سترون .

لعلكـم تذكرون اننى زعمت فى حديثـى عن امـرىء

القيس أن أسلوبه يمتاز بجلاء العبارة وانسجامها انسجاما كليا فى الغالب وببلاغة التشبيه وجمال الاستعارة . وبأنى أدعيت فى حديثى عن زهير : أن البساطة والاقتصاد فى الألفاظ وسلاسة التعبير خير ما يميزه من حيث الأسلوب . وبأنى زعمت كذلك فى حديثى عن ابن كلثوم وابن حلزة : أن الأول موسيقى اللغة ، دمث التعبير محكم القوافى ذو تشابيه تجمع بين جمال البداوة وبساطتها ، وأن الثانى يتجافى عن كل زخرفة بيانية الا أن فى كلامه جمال القصة وحسن المناقشة ومرارة التهكم ، وبأنى أظهرت فى نهاية حديثى عن عنترة عجزى عن فهم أسلوبه الخاص . فلنلاحظ الآن أن مطولة لبيد لا تمتاز بشىء سوى غرابة اللفظ ، وخشونة التركيب ، وجفاف التعبير ، وأن لطرفة فى مطولته أسلوبين مختلفين ، يصطنع أحدهما فى الأربعين بيتا الأولى التى يجارى بها شعراء عصره فى التحدث عن الرسوم والأطلال وفى وصف الناقة ، وتغلب غرابة اللفظ وخشونته وأخيلة البداوة وتصوراتها على هذا القسم ، ويصطنع الثانى فيما

بقى من القصيدة ؛ حيث يصف حياته ويشرح فلسفته ويشكو من ابن عمه ويفخر بنفسه . وهنا تتغلب البساطة على أسلوبه ، فلا يمتاز الا بألفاظه المختارة ، وتراكيبه المتينة ونبرته القوية التى تعبر عن روح متمردة وثابة (١)

ولا جدال فى أن هذه العناصر من أهم مميزات القريض الفنى وخصائصه ..

اذن فللمطولات السبع مميزات فنية كثيرة تتفق وروح العصر والبيئة الذين نظمت فيهما كل الاتفاق ، واذن فقد أدى اصحابها رسالتهم الأدبية بمهارة واخلاص ، فاذا اردنا

---

(١) اننا اذا شككنا بجاهلية أساليب المعلقات السبع ، فما علينا الا أن نلتمسها فى القرآن ، فبين القرآن وهذه القصائد وجوه شبه أدبية فنية قوية جدا ، فلغة كل منهما سلسلة متينة ، وتعابير كل منهما رصينة منسجمة ، وكلاهما يجمع بين الموضوعات المختلفة فى مكان واحد ، ولكليهما نصيب معتدل من التشابيه والاستعارات ، وفى كل منهما وصف دقيق وقصص مسهب ، ولكن هذا الاخير أبين وأقوى فى القرآن منه بكثير فى المعلقات السبع . لأن المجال فى النثر اكثر اتساعا لسرد الحوادث وقصها بصورة مؤثرة . اذن فالقرآن يمثل حياة العرب الأدبية فى العصر الجاهلى كما تمثلها المعلقات السبع . واذن فلا سبيل الى رفض هذه والى انكار ما لها من القيمة الأدبية التأريخية .

نحن عرب اليوم أن ننهض بأدبنا نهضة صادقة فما علينا الا أن نفكر كما فكروا ، وأن نبتكر كما ابتكروا ، حتى نجعل أدبنا ملائما لروح القرن العشرين ولاغراضه المتشعبة المتنوعة كما كان أدبهم منسجما مع حاجاتهم الخاصة والعامة فى القرنين الخامس والسادس للميلاد .

———:o:———

الشعر الفني كما أتصوره (١)

ـ تمهيد ـ الاصلية (Originalite) ـ وحدة الموضوع ـ جودة التركيب ـ ضرورة استرشاد الشاعر أو الكاتب بتصميم (Plan) ـ مثال من الشعر الفنى القديم ـ علاقة الوزن بالموضوع ـ القافية الموحدة ـ وجوب نبذها حالا ـ مثل متواضع من الشعر الفنى الحديث ـ على ضفاف الليسى ـ الخلاصة ـ

———:o:———

أيها السادة ، أشرت فى حديثى الماضى الى ضرورة تجديد الأدب العربى واصلاحه وجعله موافقا لروح هذا العصر . وأريد الليلة أن أتكلم عن اصلاح القريض الوجدانى فقط ..

الشاعر كما تعلمون أيها السادة ؛ رسول الفن ، ومثل

(١) ٢٦ كانون الثانى ١٩٣٩ .

صادق من مثل النبـوغ ، له على المجتمع أن يقدر مواهبه حق قدرهـا ، وأن يعتد بنصائحه فى الاجتمـاع والأدب والسياسة ـ اذا كان من ذوى القدرة على اسداء هـذه النصائح ـ وأن يعطف على جهوده فى سبيل تثقيف الشعور ، وتهذيب الوجدان والذوق ، وترقية الفن ، وعليه لقاء ذلك أن يلعب دوره بمهارة ، وأن يؤدى رسالته باخلاص وأمانة . ولست أقصد فى هذا أن يصطنع التبشير بمذهب من المذاهب ـ السياسية ، أو الاجتماعية ، أو الاقتصادية ـ المحببة الى الجمهور ليروج أدبه ، وترتفع منزلته ، وتذيع شهرته . وانما أقصد : أن يدرك مهمته كفنان ، وأن يقوم بها على أكمل وجه . أقصد : أن ينبذ التقليد جانبا ، والا يحفل بالصناعة اللفظية . أقصـد : أن يدرس ، ويفكـر ، ويتخيـل ، وأن يوافى الناس بنتائج درسـه ، وثمار تفكيره وتخيله . ذلك لأن أول صفة يجب أن تتوافر فى شعره هى « **الاصلية** » (**Originalite**)

فليس صحيحا أن يطلب أحـد الى الناس أن يرفعوه الى مصاف النوابغ مع أنه لم يضف الى تراث الانسانيـة

العلمى أو الأدبى شيئا يذكر . والشاعر الحقيقى : هو الذى يستمد آثاره من تأملاته ، ومشاهداته ، واختباراته ، وتأثراته ، وانفعالاته ، ومن مغامراته أيضا ؛ على أن يخلع عليها طابعه الخاص ، وأن يميزها بطريقته فى التفكير أو فى التعبير أو بهما معا . أما الذين هم يفتشون عن الافكار والعواطف ؛ فى دواوين الشعراء ، ورسائل الكتاب ، وفى المجلات والصحف ، ليفرغوها فى كلام موزون مقفى يسمونه : « شعرا » ، فأولئك هم النظامون المقلدون الذين لا قيمة لهم مطلقا .

أذكر أنى نشرت فى صيف عام ١٩١٨ فى المقتطف - لا يمكننى أن أعين العدد لأنه ليست لدى الآن نسخة منه ولكن ربما كان ذلك فى عدد حزيران - قصيدة عنوانها (السيف والقلم) لم يبخل عليها محرر المجلة بكلمة تشجيع ؛ ولكنى أستعرض الآن اكثر أبيات هذه القصيدة فلا أجد فيها شيئا أعتبره جديدا ، أو أصليا . فقد جاء فيها مثلا :

تستصغر الدولة الكبرى اذا ظلمت

والبغى موصولة عقباه بالندم

والجيش يضعف أو يقوى بقائده

وما السلاح له أجدى من الهمم

منها :

احذر عدوا اذا ازورت ضمائره

أراك منه احتيالا ثغر مبتسم

أتبع مقالك أفعالا تصدقه

فالفوز بين يد فعالة وفم

ماذا يؤمل وان فى بطالته

وحظ ذى النوم منه باطل الحلم

لا يعقب المرء مجدا حسن صورته

ان فاته الحسن فى الاخلاق والشيم

قد تكون هذه الأمثال حسنة ، وقد تكون الحكم الاخرى المنسوجة على منوالها فى هذه القصيدة صحيحة ونافعة ، ولكنى أؤكد اننى لم ابتكر منها شيئا ، وأنها

موجودة فى كتب الحكم والأمثال كـ (نهج البلاغة) و (كليلة ودمنة) و (الصادح والباغم) وغيرها . مثال آخر : أنشدنى المرحوم الزهاوى عام ١٩١٩ همزيته التى يسميها (الكبرى) والتى يصف فيها الفلك وصفا مطولا . فوسوس لى الشيطان أن أعارضها بهمزية ركيكة لم تخل من ذكر الأفلاك والنجوم مطلعها :

لك ياشمس دولة فى الفضاء
يصل الأرض حكمها بالسماء

منها :

تبعتك الكرات فاجتذبيها
تحت تيار قوة الكهرباء
فتوسطتها كأنك ملك
حف فيه جمع من الكبراء

. . . .

ان فعل القوى ليعلو ظهورا
بك مهما تبرقعت بالخفاء

لست الا كما روى العلم نارا
هددتهـا الأيام بالانطفـــاء

لا أريد أن أتكلم عن المعلومات الفلكية الموجودة فى همزية المرحوم الزهاوى ، ولكنى أتكلم عمـا هو موجود منها فى قصيدتى : ان هذه المعلومات ان كانت غير صحيحة فهى لا تساوى شيئا ، وان كانت صحيحة فلا نصيب لى فيها البتة ، اذ لا جدال فى أنها نتيجة بحوث العلماء الذين قضوا أعمارهم بين المراصد والأزياج يراقبون حركات الأجرام السماوية ، ويدرسون أسرارها وخفاياها . اذن فما معنى اجهـاد القريحة وقضاء الوقت فى صوغ القوالب الشعرية لقواعد علمية قررها الآخرون وتناقلتها الكتب والمجلات فى لغات مختلفة ؟ ! ... هذا فضلا عن أن القواعـد العلمية لا تصلح أبدا لأن تكون مسرحا للخيال ومبعثا للشعر .

لقد سمعتم ايها السادة نماذج من الشعر التقليدى الذى لا أصلية فيه مطلقا ، وقد أردت أن تكون هذه النماذج من شعرى لئلا أزعـج رفات أحـد سـكان القبور ، أو أجرح

عاطفة شاعر معاصر ، وأظن أنه لا يثقل عليكم الآن أن تسمعوا نماذج من الشعر الممتلىء أصلية وشخصية . اسمعوا ما يقول طرفة فى وصف مجلس طرب :

ندامای بیض كالنجـــوم وقينـــة
تروح وتغدو بين برد ومجسد (١)

رحيب قطاب (٢) الجيب منها رفيقة
بجس الندامـى بضـة المتجـــرد

اذا نحن قلنـا أسمعينـا انبرت لنـا
على رسـلها مطروقة (٣) لم تشـدد

أليس فى هـــذه الأبيات قهقهة الأباريق وظرف الندمان ومرح القيان ونغمات العيدان ؟

× وانصتوا الى جميـل بن معمر لتـروا كيف يصف علاقته بحبيبته بثينة : ٨

---

(١) المجسد : الثوب المصبوغ بالزعفران .
(٢) قطاب الجيب : مخرج الرأس منه .
(٣) المطروقة : الضعيفة ، ويروى « مطروفة » اى فاترة الطرف .

وانى لأرضى من بثينـــة بالـذى

لو ابصره الواشـى لقـرت بلابلـه

ب، لا ، وبأن ، لا أستطيع ، وبالمنى

وبالأمـل المرجو قد خـاب آملـه

وبالنظـرة العجلى وبالحول تنقضـى

أواخـره لا نلتقـى وأوائلـــــه

ألا ترون أن الشاعر العاشق قد صدقنا الحديث فلم يزد ولم ينقص شيئا فى وصفه درجة اتصاله بحبيبته ؟

وتعالوا نستعرض رأى المتنبى فى الزمان والناس :

صحب الناس قبلنـــا ذا الزمانا

وعناهـــم من أمـــره ما عنانا

وتولـــوا بغصـــة كلهم منـ

ـه وان سر بعضهم أحيانـــــا

ربمـــا تحسن الصنيـــع لياليـ

ـه ولكن تكـدر الاحسانـــــا

وكأنا لم نرض فينا بريب الد
هر حتى أعانه من أعانا
كلما أنبت الزمان قناة
ركب المرء فى القناة سنانا
ومراد النفوس أصغر من أن
نتعادى فيه وأن نتفانا

ألم يقرر أبو الطيب فى هذه الأبيات رأيه فى الزمان والناس بصورة لم يسبقه اليها أحد ؟ ..

اذن فلنحترس من الاعادة ولنتجنب التقليد ، لأنهما يقتلان الأصلية فى شعرائنا ويقضيان على ما لهم من الشخصية . ولكن حذار أن تقودنا الرغبة غير الرشيدة فى الابتكار الى الأخطاء التى وقع فيها بعض شعرائنا فىالقرون المتوسطة ، فقد جنح هؤلاء الى الابتداع والاختراع ، وقد اخترعوا وابتدعوا فعلا أخيلة ومعانى كثيرة ؟ ولكن لما كانت مذاهب البيان عندهم غير واضحة تماما ؛ ساقتهم رغبتهم الشديدة فى الابتكار الى الغلو والاغراق أحيانا .

أراد ابو نُوَاس أن يأتى بالعجب العجاب فى مدح الرشيد فقال :

وأخفت أهل الشرك حتى انه

لتخافك النطف التى لم تخلق

مع أنه لو درس أخلاق الرشيد أو مقدرته السياسية وحللها تحليلا طريفا لأرضى الخليفة وحصل على الجائزة ولم يسىء الى الأدب بهذه المبالغة .

وأحب ابن هانئ الأندلسى أن يحصل على رضا المعز لدين‌الله وعلى مواهبه السنية ؛ ففضله مرة على الملائكة :

وعلمت من مكنون علم الله ما

لم يؤت جبريلا وميكائيلا

وتارة على الأنبياء :

لو كنت نوحا مرسلا فى قومه

ما زادهم بدعائه تضليلا

وفى اطراء سيرة المعز وتعداد مناقبه الشخصية الحقيقية ما يغنى عن هذا الهذر . وكم فى دواوين شعرائنا القدماء

لسوء الحظ من أمثال ونظائر لهذه الشطحات .

أيها السادة اننا اذا طلبنا الى الشاعر أن يكون ذا أصلية فاننا نطلب اليه أن يبحث عنها فى عالم الحياة لا فى عالم الأوهام ، وفى حدود هذا الكون لا فى ـ ما وراء الطبيعة ـ . رأى سياسى ، مذهب اجتماعى ، عاطفة غرامية ، منظر جميل ، خلق حميد ، قصة طريفة ، . هذا هو كل ما نطلب الى الشاعر أن يتحفنا به فى الأشكال والقوالب التى تلائم ذوقه وتتفق وطريقته . وفى امكاننا أن نختصر هذا فنطلب الى الشاعر أن يخلص فقط فيما يقول ؛ لأنه اذا أخلص وصف الاشياء كما يجب أن توصف ، وتحدث عن الحقيقة فى حدود مقدرته الأدبية كما يجب ان يتحدث عنها . وليس شىء أدل على عدم اخلاص الشاعر فيما يقول من جمعه موضوعين أو أكثر فى قصيدة واحدة . ذلك لأننا اذا فرضنا أنه مخلص فيما يقول ، فان كلامه ينتهى بانتهاء الموضوع الذى يشغل باله ويسيطر على عقله . وكل كلام يأتى بعده فضلة لا مبرر لها .

امتـدح أبو تمام أبا دلف العجلى وهو جـواد مفضال جدير بالثناء ، فبدأ قصيدته بقوله :

على مثلهـــا من أربـع ومـلاعب
أذيلت مصونات الدموع السواكب

أتظنون أن هـذه الدموع المسفوحة على تلك الربوع ضرورية لاطراء مزايا أبى دلف ولتعداد مآثره ومفاخره ؟ . أليست بائيـة أبى تمام التى قالهـا فى فتح عمورية والتى لم تصدر لحسن الحـظ بشىء من النسيب المصطنع أفضل من القصيدة السابقـة بكثير لاشـتمالهـا على موضوع واحـد ولدلالتها من هذه الناحية على تأثر الشاعر بما يصف ؟ !

وأراد أبو الطيب المتنبى أن يطرى بعض مفاخر سيف الدولة ،فاستهل كلمته بنسيب رقيق هاكم مثلا منه :

عواذل ذات الخال فى حواسد
وان ضجيع الخود منى لماجـد
يرد يـدا عن ثوبهـــاوهـو قـادر
ويعصى الهوى فى طيفها وهو راقد

وما عتم أن أطرى نفسه قبل ان يطرى ممدوحه فقال :

أهـم بشىء والليـالى كأنمـا
تطاردنى عن كونه وأطـارد
وحيدا من الخلان فى كل بلدة
اذا عظم المطلوب قل المساعد

وبعد أن قضى وطره من التحدث عن صبابته الموهومة ثم عن مطامعه الواسـعة ومطامحه العالية تخلص الى مدح سيف الدولة فقال :

خليلى انى لا أرى غير شاعر
فلم منهم الدعوى ومنى القصائد
فلا تعجبا ان السيوف كثيرة
ولكن سيف الدولة اليوم واحد

أتقاس هذه القصيدة ذات الموضوعات المختلفة بالقصيدة الرنانة التى قالها المتنبى فى استرداد سيف الدولة (قلعة الحدث) من أيدى الروم ، والتى اقتصر بها على ذكر المعارك الهائلة التى دارت بين الفريقين وعلى وصف بطولة القائد العربى

المظفر وصفا رائعا :

على قدر أهل العزم تأتى العزائم
وتأتى على قدر الكرام المكارم
وتعظم فى عين الصغير صغارها
وتصغر فى عين العظيم العظائم
يكلف سيف الدولة الجيش همه
وقد عجزت عنه الجيوش الخضارم(١)
ويطلب عند الناس ما عند نفسه
وذلك مالا تدعيه الضراغم

. . . ، . . . ، . . . ، . . . ، . . . ،

هل الحدث الحمراء تعرف لونها
وتعلم أى الساقيين الغمائم
سقتها الغمام الغر (٢) قبل نزوله
فلما دنا منها سقتها الجماجم

---

(١) الخضارم : جمع خضرم وهو الكثير العظيم من كل شئ .
(٢) الغر : البيض .

وكان بها مثل الجنون فأصبحت
ومن جثث القتلى عليها تمائم
بناها فأعلى والقنا يقرع القنا
وموج المنايا حولها متلاطم
طريدة دهر ساقها فرددتها
على الدين بالخطى والدهر راغم

. . . .

ألا ترون أن القصيدة الاولى أقرب الى الشذوذ والانحراف لاشتمالها على موضوعات مختلفة لا صلة بينها مطلقا ؟ وأن الثانية أقرب الى سلامة الذوق والمنطق لاقتصارها على موضوع واحد تعمق الشاعر فى درسه وأفاض فى تحليله (١) ؟ . اذن فمن واجب الشاعر الا يطرق فى قصيدة واحدة سوى موضوع واحد ؛ على أن يدرسه دراسة مستفيضة ويحلله تحليلا دقيقا حتى ينتزع منه صورة صحيحة

(١) الحق ان المتنبى فطن لهذا الشذوذ الذى جرى عليه شعراؤنا فى تصدير المديح بالنسيب ونقده بقوله :
اذا كان مدح فالنسيب المقدم ... أكل فصيح قال شعرا متيم ؟
ولكنه ظل محافظا على هذه العادة رغم استهجانه اياها .

كاملة تدل على سلامة ذوقه ، واستقامة تفكيره .

وهناك شرط أساسى آخر لابد من مراعاته فى القريض الفنى وهو : جودة التركيب ، وأعنى بجودة التركيب ترتيب الفكر ترتيبا منطقيا فى القصيدة أو المقطوعة كلها لا فى البيت الواحد .

لقد كان يتحتم على الشاعر المجيد أن يحسن كل الاحسان فى ثلاثة : المطلع ، التخلص ، المقطع أو الختام. ولكن اذا كان هذا يتفق ومنطق القرون الوسطى ، فانه لا يتفق بحال من الأحوال ومنطق هذا العصر ؛ فواجب الشاعر اليوم وهو واجب الكاتب أيضا ـ: أن يرسم لنفسه خطة ينفذها فى عمله الأدبى الفنى بدراية ولباقة . تسمى هذه الخطة عند الفرنسيين ـ بلا ـ (Plan) ونسميها نحن تصميما واذا اتفقنا على هذه التسمية ـ ولو موقتا ـ فلنلاحظ أن التصميم يقضى أن يتدرج الأديب ببسط أفكاره وأغراضه تدرجا دقيقا ؛ على أن يوجز حيث يحسن الايجاز ، ويجرى هذا غالبا فى الابتداء الذى يجب أن يكون تمهيدا أو شبه

تمهيد ، وأن يطنب ويفيض فى التحليل والايضاح حيث ينبغى هذا كله ، وأن يخرج من كل ما تقدم بنتيجة حاسمة ملموسة ... وفى دواوين شعرائنا القدماء والمحدثين قصائد ومقطوعات كثيرة روعيت فيها هذه القواعد عفوا والتزمت بديهة ، وأقدم ما يخطر على بالى الآن من هذا القبيل قول الفند الزمانى أحد شعراء حرب البسوس :

صفحنا عن بنى ذهل
وقلنا القوم اخوان
عسى الأيام أن يرجع
ن قوما كالذى كانوا
فلما صرح الشر
وأضحى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوا
ن دناهم كما دانوا
مشينا مشية الليث
غدا والليث غضبان

بضرب فيه توهين (١)
وتخضيع (٢) واقران (٣)
وطعن كفم الزق
غذا (٤) والزق ملآن
وبعض الحلم عند الجهل
ل للذلة اذعان
وفى الشر نجاة حي
ن لا ينجيك احسان

فأنتم ترون أن الشاعر يخبرنا بطريقة فنية أنه جنح الى السلم ، ولكن بنو ذهل أكرهوه على الخروج من عزلته ، فدخل المعمعة مرغما ، ولكنه أبلى بلاء المحارب الشجاع وأنتهى بضرب مثلين مؤداهما أن الاعتماد على القوة فى صيانة الحقوق ضرورى اذا فشلت الجهود السلمية المبذولة

(١) التوهين : التضعيف .
(٢) التخضيع : الاخضاع .
(٣) الاقران : التتابع .
(٤) غذا : سال .

فى هذا الصدد .

ومما يجب التنبيه اليه هـذه العلاقة بين العروض والموضوع ، فليس من المستحسن أن ينظم الشاعر قصيدة فلسفية أو مرثية كئيبة فى وزن قصير يصلح للشدو وينسجم وحركات الرقص كالهزج والمجتث .

وقد فطن كثير من شعراء الموشحات فى الأندلس الى هذا ولم يغفل عنه صفى الدين الحلى فى كثير من موشحاته .

وأخيرا لابد لنا من اعلان حرب عوان على وحدة القافية ، فليس شىء أدعى الى خنق الفكر ، وتضييق رقعة الخيال ، وشل القريحة ، من هذه القافية الموحدة التى نلتزمها غالبا فى أشعارنا . ان هذه القافية الموحدة هى التى منعتنا الى الآن من نظم ملحمة كبرى (كالالياذة) و (الشاهنامة) ، وهى التى حملتنا على الاسراف فى استعمال المجاز والكنايات والاستعارات من حيث نعلم ولا نعلم ، وهى التى محت او كادت تمحو من أعماق نفوسنا الشعور بالموسيقى الشعرية ، فلنتخلص منها حالا ، ولننبذها دون تردد .

واذا غفرتم لى أيها السادة فأنا أنشدكم الآن قصيدة متواضعة روعيت فيها المزاعم السابقة الذكر كافة ، ولكى أحيطكم خبرا بكل شيء أقول لكم : ان صاحب هذه القصيدة وصف بها ساعات جميلة قضاها على ضفاف نهر (الليس) بقرب (مونبيليه) فى صيفى ١٩٣٤ و١٩٣٥ :

- على ضفاف (الليس) -

دعنى وعهد نعيمى
فى طيبات الأصائل
فى حيث طلق النسيم
يهب بين الخمائل

. . . .

دعنى أروح نفسى
بأطيب النفحات
فذى أويقات أنسى
وذا الحبيب المواتى

. . . .

هـذى البلابل تشـــدو

على الغصـون النواضـر

فمـا مـن الـكأس بـد

والعيش زاه وزاهـــــر

. . . .

ظل على (الليس) ضاف

وروضـــــة وكتـــاب

وذو دلال مصـــــاف

حديثـــــــه مستطاب

. . . .

لقــــد أخـذت نصيبى

من الحيـــــاة فحسبـى

ملكت قلب حبيبـــــى

كمـــا تملك قلبـــــى

لا تذكرن زمانـــــــا

قاسيت أقســى خطوبه

فقـد تولى مهانـــا
مسامحـا فى ذنوبـه

. . . .

لا تحسبن لماضـــس
ولا لآت حسابـــــا
بحاضـرى أنــا راض
فلننتهبـــه انتهابـا

——:o:——

الخلاصة أيها السادة أن القصيدة الفنية وحدة بيانيـة تظهر فيها قدرة الشاعر على الابتكار وتراعى بها وحـدة الموضوع وجودة ترتيب الفكر والتئام العروض والموضوع الى حد ما وحرية القافية . لقد كنت أتردد قليلا بتقرير هذه المبادىء عندما انتهى اليها بحثى عام (١٩٢٦) ولكن المامى الضعيف بالأدب الفرنسى جعلنى أتمسك بها تمسكا شديدا .



الفهرست

———:o:———

خطأ وصواب

الصفحة	السطر	الخطأ	الصواب
١٨	٥	وأضيف	وأضيفت
٣٣	٣	ينتجها	ينتهجها
٣٩	١ (حاشية)	أثمرتم	أعدتم
٥٠	٤	يستوحبها	يستوحيها
٥٥	١ (حاشية)	بفتح الغاء	بفتح الفاء
٥٥	١ (حاشية)	والجمل	أو الجمل
٥٦	٥	حتى يسرف في الادعاء ويمعن	حتى يسرف في الادعاء
٥٦	٦	في الغلو	والغلو
٥٧	١ (حاشية)	تحرير الزارين	تحرير الزارية
٥٧	٤	فقصيدته صورة	فقصيدته صورة صادقة
٥٧	١٠	تسف	نسف
٦٦	١٤	من ضرب العيس	من ضرب العير
٦٧	١٠	جددو	جدود
٦٧	١١	ارتم	أردتم
٨٠	٤ (حاشية)	النحرمابينالترقوتين	نقرة بين الترقوتين
٨٧	١	أحزرت	أحرزت
١١٠	٥ (حاشية)	خشقها	خشفها
١١١	٦ (حاشية)	قليل الاقدار	قليل الاقذار
١٢٤	٥	أثر البخيل	أمر البخيل